الفصل الرابع:
[أهم الأحداث العسكرية بين أحد والخندق]

أهم الأحداث بين أحد والخندق:

لقد ابتلي المسلمون في أحد أشد الابتلاء، وكان من نتائج ما وقع لهم في أحد أن تداعت عليهم القبائل للنيل منهم، وكادت تذهب ريحهم، وتزول هيبتهم عن النفوس، وزادت المتاعب الداخلية والخارجية على المؤمنين وأحاطت الأخطار بالمدينة من كل جانب، وكاشف اليهود والمنافقون والأعراب بالعداء السافر، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، بل طمعت في أن تقضي عليهم وتستأصل شأفتهم. فطمعت بنو أسد في الدولة الإسلامية، وشرع خالد بن سفيان الهزلي لجمع الحشود لكي يهاجم بها المدينة، وتجرأت عَضَل والقارة على خداع المسلمين، وقام عامر بن الطفيل يقتل القرّاء الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن تغتال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن حكمة الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صرفت وجوه التيارات، وأعادت للمسلمين هيبتهم المفقودة، وأكسبتهم العلو والمجد من جديد. فكان من شجاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن واجه هذه الأخطار بسرعة وتخطيط قبل أن تجتمع كلمتهم علي أمر سواء.

سرية أبي سلمة لتأديب بني أسد:

بلغت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبار الاستعدادات التي قام بها بنو أسد بن خزيمة بقيادة طليحة الأسدي من أجل غزو المدينة طمعا في خيراتها وانتصارا لشركهم، ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين. وقد سارع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تشكيل سريّة من مائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، وأمّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد، أرسلهم إلى ديار بني أسد، فباغتوهم على ماء لهم في ديارهم، غير أنّ بني أسد سرعان ما تفرقوا تاركين ماشيتهم وإبلهم غنيمة للمسلمين من هول المباغتة.

وكان مبعث هذه السرية حين استهل هلال المحرم سنة ٤ هـ. وعاد أبو سلمة وقد نفر عليه جرح كان قد أصابه في أحد، فلم يلبث حتى مات [1].

لقد تجلت في هذه السرية عدة أمور عسكرية تدل علي مدي الكفاءة

(١) الواقدي، المغازي، ١/ ٣٤٠، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٥٠، ابن هشام، السيرة، ٤/ ٣٤٤، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٧٠.

العسكرية، منها: مهارة التخطيط الحربي، عند الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث فرق أعداءه قبل أن يجتمعوا، فذهلوا لمجئ سرية أبي سلمة وهم يظنون أن المسلمين قد أضعفتهم وقعة أحد وأذهلتهم عن أنفسهم، فأصيب المشركون بالرعب من المسلمين ووهت عزيمتهم، وانشغلوا بأنفسهم عن مهاجمة المدينة، ويقظة المخابرات الحربية الإسلامية التي رصد تحركات بنو أسد، وسبقتهم في التحرك قبل أن يشرعوا في تنفيذ مخططاتهم، ودقة المسلمين في الرصد الحربي واختيارهم التوقيت الصحيح والطريق المناسب حيث وصلوا إلى الأعداء قبل أن يعلموا عنهم أي شيء رغم بعد المسافة، وكان هذا هو أهم عوامل نجاح المسلمين في هذه السرية وتركت هذه السرية لدي الأعداء شعوراً مؤثراً على معنوياتهم، ألا وهو قناعتهم بقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بالحروب الخاطفة المفاجئة تجعلهم يمتلئون رعباً منهم ويتوقعون الإغارة في أي وقت، وهذا الشعور حملهم على الاعتراف بقوة المسلمين، ومسالمتهم[1].

سرية عبد الله بن أنيس:

كان على المسلمين في المدينة أن يواجهوا أعداءهم المتربصين في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية من قريش الموتورين مرورا باليهود الخائنين إلى الأعراب الطامعين في خيرات المدينة، ولكن عين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم تكن تغفل عنهم ولو للحظة حيث كان يرصد تحركاتهم، وسكناتهم، ويتحسس أخبارهم عن طريق شبكة منظمة من العيون والجواسيس المبثوثين في مناطق الأعداء، والتي ساهمت بشكل كبير وفعال في موضع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الصورة دائما، فكان باستمرار يسبق الأحداث، ويفاجيء أعداءه بمبادرة عجيبة تقضي على مخططاتهم العدوانية في مهدها.

وكان من هؤلاء رجل من أشد الأعراب وشياطينهم يدعى خالد بن سفيان الهذلي، وصلت المعلومات إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا الأعرابي بأنه يتحرك - وبنشاط كبير وملحوظ - لحشد عدد كبير من الأحابيش والأعراب ليغزو بهم المدينة، وعلى الفور استدعى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحد رجال المهمات الصعبة المعدودين، مغوار من أبطال الصحابة وذي باع وخبرة في هذا المضمار ذلكم هو عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) الحميدي، التاريخ الإسلامي، ٦ / ٢٣.

إن تخير الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الصحابي المغوار لهذه المهمة البالغة الصعوبة يعطي دلالة واضحة على معرفته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الشديدة برجاله حيث كان يكل لكل منهم المهمة التي تناسب وضعه وإمكانيته، يعني الرجل المناسب في المكان المناسب، وهو عمل قائم على التخطيط السليم والدقة في الاختيار وكون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يختار لهذه السرايا بعض رجاله لا يعني بالضرورة أن بقية الصحابة لا يصلحون لهذه المهمات، فهم جميعا كانوا لا يهابون الموت بل ويتحرقون دائما للشهادة في سبيل الله، ولكن المواقف الحساسة التي تمر بها مثل هذه السرايا تتطلب رجالا فيهم صفات مميزة كعبد الله بن أنيس، وعبد الله بن رواحة، وعبد الله بن عتيك، ومحمد بن سلمة، وعمرو بن أمية وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين.

ولنستمع إلى الحوار التالي الذي دار بين رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والذي يعتبر من دلائل نبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما يوضح صفة ذلك الأعرابي المخيفة والتي كانت تؤثر حتى في أشد الرجال صرامة وقوة أمثال عبد الله بن أنيس، والذي تبين من خلال هذا الحوار مدى ما كان يتمتع به من رباطة جأش وقوة شكيمة، حيث تحددت أبعاد المهمة الخطيرة التي أنيطت به.

قال عبد الله: "دعاني رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فقال: «**إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان بن نبيح يجمع لي الناس ليغزوني وهو بعرنة**[1]**، فأته فاقتله**»، قلت: يا رسول الله انعته لي[2] حتى أعرفه قال: «**إذا رأيته وجدت له قشعريرة**»[3].

بهذه الكلمات الموجزة تزود عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ معلومات كافية ومهمة عن الهدف المقصود مكانه وصفته.

---

(١) وادي عرنة: هو الوادي الفحل الذي يخترق أرض المغمس، فيمر بطرف عرفة من الغرب عند مسجد نمرة ثم يجتمع مع وادي نعمان غير بعيد من عرفة ثم يأخذ الواديان اسم عرنة، فيمر جنوب مكة على حدود الحرم، ثم يُغرب حتى يفيض في البحر جنوب جدة على قرابة ٣٠ كيلو وهو من الأودية الفحول ذات السيول الجارفة وزراعته قليلة، فيه زرائع على الضخ الآلي، وبطن عرنة هو بطن الوادي الذي فيه مسجد عرفة. انظر: البكري، معجم ما استعجم، ٤/ ١١٩١.

(٢) أي: صفه لي.

(٣) أي رعدة. (القاموس: اقشعر) وعند ابن هشام: إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان. السيرة، ٤/ ٦١٩.

وينطلق عبد الله في مسيره الاقترابي نحو الهدف، عدته اليقين والتوكل على الله، وسلاحه سلاح الراكب، يقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "فخرجت متوشحا بسيفي حتى وقعت عليه، وهو بعرنة مع ظعن[1]، يرتاد لهن منزلا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من القشعريرة، فأقبلت نحوه" فقلت: إني أخاف أن يكون بيني وبينه ما أن أؤخر الصلاة، فانطلقت أمشي، وأنا أصلي أومىء إيماء نحوه، فلما دنوت منه، قال لي: من أنت؟ قلت رجل من العرب بلغني أنك تجمع لهذا الرجل، فجئتك في ذاك، قال: إني لفي ذاك، فمشيت معه ساعة، حتى إذا أمكنني علوته بسيفي حتى برد[2]".

"ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرآني، قال: «**أفلح الوجه**»، قلت: قتلتُه يا رسول الله، قال: «**صدقت**»، قال: ثم قام معي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدخل بيته فأعطاني عصا، فقال: «**أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس**»، قال: فخرجت بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا، قال: قلت: أعطانيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمرني أن أمسكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسأله عن ذلك، قال: فرجعت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني هذه العصا؟ قال: «**آية بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المختصرون[3] يومئذ يوم القيامة**»، فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه حتى إذا مات بها فضمت في كفنه، ثم دُفنا جميعا"[4].

وهكذا لم تكن المكافأة على هذا العمل العظيم الجريء مادية دنوية كما يتمناه الكثير ممن يقوم بالمهمات الصعبة في جيوش العالم قديما وحديثا، بل كانت أسمى

---

(١) الظعن: جمع ظعينة وهو الهودج فيه امرأة، والمرأة ما دامت في الهودج. القاموس: ظعن).

(٢) أي: مات.

(٣) المختصرة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازه، أو مقرعة أو قضيب، وقد يتكىء عليه. ابن الأثير، النهاية، ٢/ ٣٦.

(٤) الحديث أخرجه أبو داود مختصرا في كتاب الصلاة، باب صلاة الطالب، سنن (٢/ ٤١ - ٤٢)، عون المعبود (٤/ ١٢٩)، وسكت عنه هو والمنذري، وحسن الحافظ إسناده في الفتح. ابن حجر، فتح، ٢/ ٤٣٧، والشامي في السبل (٦/ ٥٧). وانظر: ابن هشام، السيرة (٤/ ٦١٩ - ٦٢٠)، بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ص١٥٦ - ١٥٩.

من ذلك وأعظم فهي وسام شرف أخروي قليل من يناله[1] .

ويظهر في هذا الخبر دليل من دلائل نبوته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فهو قد وصف ابن نبيح لعبد الله بن أنيس وصفاً دقيقاً دون أن يراه حتى إن ابن أنيس عندما رد على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متعجبا كما وقع في رواية الواقدي: "يا رسول الله ما فرقت من شيء قط ، قال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بلى آية ما بيني وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته**» [2] .

وفعلاً وجده على الصفة التي ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يقول عبد الله: " فلما رأيته هبته وفرقت منه ، فقلت: صدق الله ورسوله "[3] .

بعث الرجيع[4] :

اختلفت مرويات سرية الرجيع فيما بينها كثيراً حول السبب الذي من أجله بعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وفي الوقت الذي يورد البخاري بأنه إنما بعث عيناً لتجمع المعلومات عن العدو[5] ، فإن مرويات أخرى بأسانيد صحيحة ورد فيها أنه قدم على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين إلى المدينة وقالوا: (إن فينا إسلاماً فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهونا ويقرؤونا القرآن ويعلمونا شرائع الإسلام) ويظهر أن قبيلة هذيل قد سعت للثأر من المسلمين لخالد بن سفيان الهذلي فلجأت إلى الخديعة والغدر ، وقد جزم الواقدي[6] بأن السبب هو أن بني لحيان وهم حي من هذيل ، مَشَتْ إلى عضل والقارة وجعلت لهم جعلاً ليخرجوا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويطلبون منه أن

---

(١) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص١٥٩ .

(٢) الواقدي ، مغازي ، ٢/ ٥٣٢ .

(٣) من رواية موسى بن عقبة . البيهقي ، دلائل ، ٤/ ٤١ ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ١٦١ .

(٤) الرَّجيع: بفتح أوله ، وبالعين المهملة في آخره – ماء لهذيل بناحية الحجاز على صدر الهدأة ، والرجيع: ماء يعرف اليوم باسم الوطية ، يقع شمال مكة على قرابة سبعين كيلو ، قبيل عسفان إلى اليمن ، في طرف شامية ابن حمادي من الشمال ، بسفح حرة بني جابر الجنوبي ، وشامية ابن حمادي هي أسفل الهدة ، والهدة وادٍ يمر شمال مكة ، وعلى يمين الجادة إلى عسفان ، والرجيع اليوم من ديار حرب ، لبشر خاصة منهم .
انظر ابن هشام ، سيرة ، ٣/ ١٧٠ ، والبكري ، معجم ، ٢/ ٦٤١ ، معالم مكة ، ص١١٣ .

(٥) البخاري رقم ٤٠٨٦ .

(٦) مغازي الواقدي ، ١/ ٣٥٤ – ٣٥٥ .

يُخرج معهم من يدعوهم إلى الإسلام ويفقههم في الدين ، فيكمنوا لهم ويأسروهم ويصيبوا بهم ثمناً في مكة[1] .

وقد حاول بعض المتأخرين الجمع بين الروايات وجعل مهمة السرية ازدواجية مع إمكانية ذلك [2] استطلاعية لرصد نشاط قريش والأعراب المتزايد عقب أُحد وتحركاتهم المشبوهة ، وتعليمية تلبيةً لرغبة بعض الأعراب الذين أظهروا الإسلام وطلبوا بعض المعلمين من صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليفقههوهم في الدين [3]

علي أي حال بعث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دورية قوتها عشرة أفراد[4]

---

(١) نظرة النعيم ، ١/ ٣١٤ .

(٢) قال الزرقاني: ويجمع بأنه لما أراد بعثهم عيونا ، وافق مجيء النفر في طلب من يفقههم ، فبعثهم في الأمرين . الزرقاني ، شرح (٢/ ٦٥) . وقال الدكتور أكرم ضياء العمري بعد سياقه لرواية ابن إسحاق: ولكن البخاري يقول: إن مهمة الوفد استطلاعية في حين يذكر ابن إسحاق أنهم معلمون ، ويمكن الجمع بين المهمتين . المجتمع المدني ، ص٨٨ .

(٣) بريك بن محمد بريك أبو مايلة العمري ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ١/ ٢٢٩ .

(٤) اختلف أهل المغازي في عدد أفراد تبك السرية ، فمنهم من وافق أهل الحديث كابن سعد الذي جزم بأنهم كانوا عشرة سمي منهم سبعة فقط هم: عاصم بن ثابت ، ومرثد بن أبي مرثد ، وعبد.الله بن طارق ، وخبيب بن عدي ، وزيد بن الدُّثنة ، وخالد بن أبي البكير ، ومعتب بن عبيد . ابن سعد ، طبقات ، ٢/ ٥٥ .
وقال ابن حجر معلقا على عدم تسمية الثلاثة الباقين: فلعل الثلاثة الآخرين كانوا أتباعا لهم فلم يحصل الاعتناء بتسميتهم . فتح الباري (٧/ ٣٨٠) . وتردد الواقدي في روايته فذكر أنهم سبعة ، ثم قال: ويقال كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبي مرثد ، ويقال: أميرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح .الواقدي: مغازي ، ١/ ٣٥٤ - ٣٥٥ .
وجزم ابن إسحاق بأنهم ستة ، وذكر أن أميرهم مرثد بن أبي مرثد ، سيرة ، ٣/ ١٦٩ .أما موسى بن عقبة فكانت عنه روايتان: رواية وافق فيها ابن إسحاق ، وأخرى لم يذكر فيها سوى أربعة سماهم . انظر البيهقي . دلائل (٣/ ٣٢٦ - ٣٢٧) .وذكر ابن سيد الناس أنه شاهد في كتاب الطبري: "ذيل المذيل" قصيدة لحسان يرثي فيها أصحاب الرجيع الستة:

ألاَ ليستني فيها شَهِدتُ ابنَ طارق ::: وزيدًا وما تُغني الأمانيِ ومرثدًا
ودافعت عن حيي حبيبٍ وعاصمٍ ::: وكان شفاءً لو تداركتُ خالدًا

ابن سيد الناس . عيون ، ١/ ٥٩ - ٦٠ .
وأيّد بعض المتأخرين من أهل المغازي روايات الصحيح باعتبارها أصح إسنادا .
انظر السهيلي ، الروض ، ٦/ ١٨٤ ، والمقريزي ، إمتاع ، ١/ ١٧٤ . بينما رجع ابن حجر أن قائد السرية عاصم بن ثابت بناء على رواية الصحيح ، ولكنه ذكر في موضع آخر أن البعض حاول الجمع بين رواية الصحيح ورواية أهل المغازي بأن أمير السرية مرثد ، وأمير

بقيادة عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حتى إذا كانوا بالهدأة [1] هو بين عسفان ومكة - ذُكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لحيان فنفروا لهم قريبا من مائتي رجل، كلهم رام، فاقتصوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرًا - تزودوه - من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فاقتصوا آثارهم [2].

فلما رآهم عاصم انسحب بأصحابه إلى مكان مرتفع تجنبا للاشتباك المباشر - الذي كان فيه القضاء التام عليهم - فاللحيانيون يفوقونهم في العدد والعدة بكثير.

وما أن وصل القوم حتى أحاطوا بهم، ثم أخذوا يفاوضونهم على الاستسلام المشروط بالأمان إن هم نزلوا إليهم دون مقاومة، ولكن عاصم بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد السرية رفض ذلك العرض بشدة معطيا من نفسه القدوة لأصحابه وهو يقول: "أما أنا فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنا نبيك" [3].

وعلى الرجيع حصلت ملحمة جهادية رائعة في معركة غير متكافئة، سقط خلالها الأبطال عاصم وستة من رفاقه شهداء في سبيل الله بعد أن قاوموا ببسالة شديدة، لكن إرادة الله عز وجل جعلت الهذليين الكثر والمهرة في الرمي يصطادونهم بنبالهم التي حصدوهم من كل جانب.

"وبقي خبيب وزيد، ورجل آخر [4]، فأعطوهم العهد والميثاق، فلما أعطوهم العهد والميثاق نزلوا إليهم" [5]، ومعهم العذر في ذلك، لأن رفضهم الاستسلام هو حكم بالقضاء المبرم عليهم، ففضلوا الإبقاء على أنفسهم تحيُّزًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأملا في مدد أو نجدة تأتيهم من عنده تكون فيها قوة

العشرة عاصم، بناء على التعدد. انظر ابن حجر. فتح (٧/ ٣٨٠).
ومما يجدر ذكره أن مرثدا ورد ذكره في شعر حسان بن ثابت الذي نقله ابن إسحاق كقائد لأصحاب السرية، ولكن ابن هشام ذكر أن أكثر أهل العلم بالشعر ينكرها لحسان. انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٨٣.

(١) الهدأة: قال البلادي: الهدأة واد بمر شمال مكة، وعلى يمين الجادة إلى عسفان. البلادي: معجم (١٣٨).

(٢) انظر ابن حجر، فتح (٦/ ١٦٦).

(٣) انظر ابن حجر، فتح (٦/ ١٦٦).

(٤) تذكر كتب المغازي أن اسمه عبد الله بن طارق. انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧١، والواقدي، مغازي، ٢/ ٣٥٧، وابن سعد، طبقات، ٢/ ٥٦.

(٥) انظر ابن حجر، فتح، ٧/ ٣٧٨.

لاستئناف قتال يكون فيه ولو بعض التكافؤ ضد بني لحيان[1]، لكن اللحيانيين، وكما توقع عاصم من قبل غدروا بهم "فلما استمكنوا منهم حلُّوا أوتار قسيهم فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرَّروه وعالجوه أن يصحبهم فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما بمكة، فاشترى خبيبًا بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قَتَلَ الحارث يوم بدر.

فمكث عندهم أسيرًا حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحد بها فأعارته، قالت: فغفلت عن صبي لي. فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيتُه فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى فقال: أتخشين أن أقتله، ما كنت لأفعلَ ذلك إن شاء الله[2].

نعم هذه هي أخلاق الإسلام التي أدهشت الكفار قديما وحديثا، لأنهم تعودوا على الانتقام العشوائي، ولا غرو في ذلك إذا كانوا يستقون أخلاقهم من قانون الغاب، بينما صدر أخلاق المسلمين القرآن الذي من مبادئه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤][3].

وهذه المرأة التي أسلمت فيما بعد[4] ذكرت ما شاهدته من خبيب حيث تقول: "ما رأيت أسيرا قط خيرا من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين. ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنّ الركعتين عند القتل هو. ثم قال اللهم أحصهم عددا"[5].

---

(١) لقد صدق توقع خبيب وصاحبه، فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل عدَّة سرايا إلى بني لحيان وقاد بنفسه غزوة إليهم، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى وقضاءه كانت قد نفذت في خبيب وصاحبه، ولا رادَّ لقضائه. انظر: السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣٠.

(٢) انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٧٨).

(٣) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣١.

(٤) روى ابن حجر: أن اسمها زينب بنت الحارث وهي أخت عقبة بن الحارث الذي قتل خبيبا، وقيل: امرأته، ووقع عند ابن إسحاق أن التي رأت القطف في يد خبيب هي ماوية مولاة حجين بن أبي إهاب، والتي حُبس في بيتها.

(٥) انظر البخاري، الصحيح (٥/ ٤١).

ثم قتلوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحمس نفسه بأبيات يذكر فيها غربته وتألب المشركين عليه:

ولست أُبالي حين أُقتل مسلمًا ::: على أي شِقٍّ كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ::: يبارك على أوصال شلوٍ ممزع

"وأما زيد بن الدثنة فاشتراه صفوان بن أمية فقتله بأبيه أمية بن خلف، قتله نسطاس مولى بني جمح"[1].

ويذكر ابن إسحاق أن أبا سفيان قد سأله مختبرا ثباته: "أنشدك الله يا زيد أتحب أن محمدا عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه وأنك في أهلك؟ قال: والله ما أحب أن محمدا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأني جالس في أهلي"[2].

هذه الرواية[3] على ضعفها حديثيًّا إلا أننا نستأنس بها تاريخيًّا على مدى الحب المتمكن في قلوب أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، ذلك الحب الذي لا يتزعزع حتى في أصعب اللحظات حراجة، وهكذا نراهم يفدونه بأنفسهم أن تصيبه شوكة آمنا في بيته، وهو بين يدي أعدائهم يعاينون الموت، فما أخلصها من تضحية، وما أعظمه حبًّا أدهش أعداءهم في ذلك الوقت، يقول أبو سفيان في سياق الرواية السابقة "ما رأيت من الناس أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا"[4].

وقد استجاب الله عز وجل "لعاصم بن ثابت يوم أصيب، فأخبر النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه خبرهم وما أصيبوا، وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حُدثوا أنه قتل ليؤتوا بشيء منه يعرف، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر[5] فَبُعِثَ على عاصم مثل الظلة من

(١) انظر الطبراني، المعجم (٥/ ٢٦١).
(٢) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، كما رواه الواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.
(٣) في رواية عروة أن المشركين سألوا خبيبا مثل ذلك وأجابهم بمثل جواب زيد، فإن صحَّت الروايتان كان كلّ منهما سئل عن ذلك من جانب المشركين وأجابهم بجواب واحد بمثل حبًّا طاغيًا لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جانب أصحابه.
(٤) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، والواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.
(٥) قال ابن حجر: لعل العظيم المذكور عقبة بن أبي معيط، فإن عاصما قتله صبرا بأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن انصرفوا من بدر. ووقع عند ابن إسحاق، وكذا في رواية بريدة بن سفيان: أن عاصما لما قتل أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن شهيد، وهي أم مسافع وجلاس ابني طلحة العبدي، وكان عاصم قتلهما يوم أحد وكانت نذرت

الدَّبر[1] . فحمتهم من رسولهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا[2] .

وهكذا فقدت الدعوة إلى الله بعض فرسانها ، وحزن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ و المسلمون لفقدانهم عاصما وصحبه ، ولمصرع أسيرهم على هذا النحو الفاجع ، فقد خسروا فريقا من الدعاة الأكفاء يحتاج إليهم الإسلام في هذه الفترة من تاريخه "[3] .

وقد ذكر أرباب الحديث في هذه الحادثة عدد من الفوائد ، حيث قال ابن حجر:

- إن للأسير أن يمتنع من قبول الأمان ، ولا يمكّن من نفسه ولو قُتل ، أنفة من أنه يجري عليه حكم كافر ، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة ، فإن أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن ، قال الحسن البصري: لا بأس بذلك ، وقال سفيان الثوري: أكره ذلك .

- الوفاء للمشركين بالعهد ، والتورع عن قتل أولادهم ، والتلطف بمن أريد قتله .

- الدعاء على المشركين بالتعميم ، وإنشاء الشعر وإنشاده عند القتل .

- دلالة على قوة يقين خبيب وشدته في دينه .

- أن الله يبتلي عبده المسلم بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه ، ولو شاء ربك ما فعلوه .

- استجابة دعاء المسلم وإكرامه حيًّا وميتًا ، وغير ذلك من الفوائد مما يظهر بالتأمل ، وإنما استجاب الله له في حماية لحمه من المشركين ، ولم يمنعهم من قتله لِما أراد من إكرامه بالشهادة ، ومن كرامته حمايته من هتك حرمته بقطع لحمه[4] .

- وفي الحادثة: إثبات كرامة الأولياء . وما أكرم الله به خبيبا من إطعامه له القطف من العنب في زمان وحين لا يوجد منه بمكة حبة ولا ثمرة ، وهذه المكرمة

لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن الخمر في قحفه فمنعته الدَّبر . ابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤) .

(١) جماعة النحل ، وقيل: ذكور النحل ، أو الزنابير . القاموس ، دبر ، وابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤) .

(٢) انظر البخاري ، الصحيح (٥/ ٤١) ، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة ، ص ٢٣٣ .

(٣) الغزالي ، فقه السيرة ، ٢٧٦ .

(٤) ابن حجر ، فتح (٧/ ٣٨٤ - ٣٨٥) .

شبيهة بما قصّ الله تعالى من شأن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ [آل عمران ٣٧]، وإبلاغ الله سلامه إلى رسوله، وهما دلالتان واضحتان مثلهما جائز في إبان النبوة[١].

- وفيها أيضا مشروعية الصلاة عند القتل، قال في سياق رواية الصحيح: "فكان أول من سن الركعتين عند القتل"[٢].

قال السهيلي: "وإنما صار فعل خبيب سُنة حسنة، والسنة إنما هي أقوال من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفعال، وإقرار؛ لأنه فعلها في حياته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاستحسن ذلك من فعله، واستحسنه المعلمون مع أن الصلاة خير ما ختم به عمل العبد"[٣].

قال الحلبي: "وكان ابن سيرين رَحِمَهُ اللَّهُ إذا سئل عن الركعتين قبل القتل قال: صلاهما خبيب رضي الله تعالى عنه وحجر، وهما فاضلان، ويعني بحجر: حجر بن عدي رضي الله تعالى عنه"[٤].

وقال: "واستدل أئمتنا بقصة خبيب هذه على أنه يستحب لمن أشرف على الموت أن يتعهد نفسه بتقليم أظفاره وأخذ شعر شاربه وإبطه وعانته، ولعل ذلك كان بلغ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأقرَّه"[٥].

- حب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند الصحابة:

لقد كشفت هذه الحادثة عن مدي حب الصحابة رضوان الله عليهم للحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويظهر هذا الحب في الحوار الهادئ بين أبي سفيان وبين زيد بن الدثنة، إذ قال له أبو سفيان: أتحب أن محمداً الآن عندنا مكانك تضرب عنقه، وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ماأحب أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي[٦].

وهذا الحب من الإيمان فقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لايحبه**

(١) انظر أبا نعيم، دلائل، ٢/ ٥١١ - ٥١٢.
(٢) البخاري، الصحيح (٥/ ٤١).
(٣) السهيلي، الروض، ٦/ ١٩٢.
(٤) الحلبي، سيرة، ٣/ ١٦٢.
(٥) الحلبي، سيرة، ٣/ ١٦٠، السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٣٦.
(٦) انظر ابن هشام، سيرة، ٣/ ١٧٢، الواقدي، مغازي، ٢/ ٣٦٢.

إلا الله وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[1].

سرية بئر معونة[2]:

استمرارا لمنهجية نشر الإسلام ورسالته، ورغم ما أصاب الدعوة في صميم عملها بفقدان عدد من خيرة فرسانها في الرجيع، فقد واصل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بث الدعاة ونشر الدعوة إلى الله في كل مكان في الجزيرة العربية، حيثما وجد بصيصًا من الأمل لقبولها وانتشارها، "إذ لا بدَّ من تبليغ دعوة الإسلام مهما غلت التضحيات"[3]؛ ففي الشهر نفسه الذي أرسل فيه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سرّية الرجيع، أرسل صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سريّة أخرى إلى بئر معونة[4]، وذلك أن أبا براء عامر بن مالك المعروف بملاعب الأسنّة قدم إلى المدينة، ودعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد ووعد بإجارة وفد من الدعاة يرسلهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لدعوة الأعراب من أهل نجد[5].

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ممن عرفوا بالقرّاء لمثابرتهم على التحصيل العلمي حيث كانوا "يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء[6]، وقد أمّر عليهم المنذر بن عمرو الخزرجي[7].

---

(١) البخاري، كتاب الايمان (١/ ٧٢) رقم ٢١.

(٢) بئر معونة: ماء لبني عامر بن صعصعة، وهي بين ديار بني عامر، وحرة بني سليم، وهي إلى الحرة أقرب، وهي بلحف أبلى، وأبلى سلسلة جبلية سوداء تقع غرب المهد إلى الشمال، وتتصل غربا بحرة الحجاز العظيمة، وهي اليوم ديار مطير، ولم تعد سليم تقربها .انظر ابن هشام، السيرة، ٣/ ١٨٤، والبكري، معجم، ٤/ ١٢٤٥.

(٣) أكرم العمري، المجتمع المدني، ص٨٩.

(٤) ابن هشام، السيرة ٣/ ١٧٤، الواقدي، المغازي ١/ ٣٤٦، ابن سعد، الطبقات ٢/ ٥١.

(٥) انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٦)، والنووي على مسلم (١٣/ ٤٦).

(٦) البخاري- الصحيح ٥/ ٤١ - ٤٤ (حديث ٤٠٩٠)، انظر النووي على مسلم (١٣/ ٤٧)، وانظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٥). وجعلهم ابن إسحاق أربعين صحابيّا.

(٧) خليفة بن خياط، تاريخ ٢/ ١٧٤، الطبري، تاريخ ٢/ ٣٠ - ١، وانظر: ابن هشام، السيرة ٣/ ١٧٤. وفي الوقت الذي يذكر البخاري سببا آخر لإرسالهم وهو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أرسلهم مددا لبطون من بني سليم (الفتح - الحديث ٤٠٩٠)، ابن

وتحركت السرية حتى إذا ما وصلوا بئر معونة - وهي منطقة تماس حدودية بين أراضي قبيلة بني عامر وحرة بني سليم - عسكروا بإزائها، ومن هناك بعثوا حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد أفراد البعثة إلى الأعراب في مهمة استطلاعية وتمهيدية لمهمة البعثة الأساسية، وذلك بمبادرة منه تطوعية إذ قال لهم: "أتقدمكم فإن أمَّنوني حتى أبلغهم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإلاَّ كنتم مني قريبا"[1]. ولكن الأعراب كانوا أشدَّ كفرا ونفاقا وغدرا، فتنفيذا لخطة التآمر الدنيئة التي دبروها مع قائدهم عامر بن الطفيل العامري، وبينما حرام "يحدثهم عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ أومؤوا إلى رجل منهم فطعنه فأنفذه" فصاح: «**الله أكبر فزت ورب الكعبة**»[2].

ذلك المشهد العظيم والذي لم يعهده المشركون من قبل، جعل قاتله يسلم[3] متعجبا من رَدَّة الفعل التي لم يك أحد من الحاضرين يتوقعها من رجل يلفظ أنفاسه الأخيرة[4].

لم يكتف الأعراب بذلك بل تبعوا أثره حتى وجدوا أصحابه فأحاطوا بهم من كل جانب ودافع أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عقيدتهم السمحة التي جاءوا لنشرها بين من غدروا بهم، ولكن هول المفاجأة وكثرة الأعراب المستعدين لخيانتهم المدبَّرة سلفا لم تتح لهم الفرصة في قتال متكافىء، فسقطوا شهداء على أرض بئر معونة إلاّ رجلا أو رجلين منهم[5]، حيث سطروا بدمائهم الزكية

سعد، الطبقات، ٣/ ٥٣ بإسناد صحيح، فإن مسلم يذكر في صحيحه (٣/ ١٥١١ - حديث ٦٧٧) بأن سبب إرسالهم إنما هو للدعوة وتعليم الأعراب القرآن والسنّة بناء على طلبهم.

(١) ابن حجر، فتح (٦/ ١٩)، ورواية عند أحمد، البنا، الفتح الرباني (٢١/ ٦٤).

(٢) انظر ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٦).

(٣) جاء في رواية أحمد عن أنس: "فلما كان بعد ذلك، إذا أبو طلحة يقول لي: هل لك في قاتل حرام. قلت له: ما له فعل الله به وفعل. قال: مهلاً فإنه قد أسلم". انظر: الفتح الرباني (٢١/ ٦٥)، ابن حجر، فتح (٧/ ٣٨٨).

(٤) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٠.

(٥) ذكر أهل المغازي اسميهما، فعند ابن إسحاق: أنه عمرو بن أمية، ورجل من الأنصار من بني عمرو بن عوف. وقال ابن هشام: هو المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح، وأشارت الروايات العديدة إلى أن كعب بن زيد بن النجار ترك في أرض المعركة وبه جراحات كثيرة وبه رمق فعاش وشفي وعاش حتى استشهد في غزوة الخندق. انظر: البخاري - الصحيح (الأحاديث ٤٠٨٨ - ٤٠٩٦)، مسلم - الصحيح ٣/ ١٥١١

ملحمة من أروع الملاحم الجهادية في تاريخ الإسلام بعد أن كسبوا رضوان الله عليهم[1].

فهذا الروح الأمين عَلَيْهِ السَّلَامُ يخبر "النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم قد لقوا ربهم فرضي عنهم وأرضاهم"[2]، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: إن إخوانكم قد قتلوا وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك ورضيت عنا[3].

فيا لها من منزلة عظيمة تتوق إليها نفس كل مسلم، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أخبر أصحابه بمصيرهم، ويصف أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شدّة تأثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمصابهم: "ما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجد على شيء قط ما وجد على أصحاب سرية بئر معونة، أصحاب سرية المنذر بن عمرو، فمكث شهرا يدعو على الذين أصابوهم في قنوت صلاة الغداة"[4][5].

ومن الطبعي أن يتأثر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمصابهم، فقد كانوا من خيرة أصحابه، ومن فرسان الدعوة المعدودين، وقد كان فقدهم في وقت كانت دعوة الإسلام بحاجة ماسّة لخدماتهم، كما أن الطريقة التي تم فيها قتلهم تعصر القلب ألمًا وحزنًا عليهم، فهي طريقة شائنة لم تتح لهم الفرصة في قتال فروسي مشرف.

(حديث ٦٧٧)، أحمد - المسند: الفتح الرباني ١٢/ ٦٣ - ٦٥، الهيثمي - مجمع الزوائد ٦/ ١٢٦، ابن سعد - ٢/ ٥١ - ٥٤، ابن هشام - السيرة ٣/ ٢٦٠ - ٢٦٧، المغازي، ٢/ ٣٤٨، ابن حجر، فتح (٦/ ١٩).

(١) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٠.

(٢) ابن حجر، فتح (٦/ ١٩).

(٣) مسلم في الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد رقم ٦٧٧.

(٤) من رواية عبد الرزاق بسند صحيح عن أنس، المصنف (٥/ ٣٨٤). وأخرج البخاري نحوه عن أنس من طريق أبي النعمان. ابن حجر، فتح (٦/ ٢٧٢). ومسلم أيضا. انظر النووي على مسلم (٥/ ١٧٩).

(٥) الخبر صحيح متفق عليه، فقد أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع عدة، انظر ابن حجر، فتح (٢/ ٤٩٠، ٦/ ١٩ - ٣١ - ٢٧٢، ٧/ ٣٨٦ - ٣٨٨ - ٣٨٩). وأخرجه مسلم في صحيح. انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٥/ ١٧٨ - ١٧٩، ١٣/ ٤٧).
وقد استجاب المولى عز وجل لدعاء نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأصيب عامر بن الطفيل بمرض الطاعون (ارتفاع درجة الحرارة وتضخم العقد الليمفية في منطقة الإرب وتحت الإبط وكذا تضخم الطحال) وظل حبيساً في بيت امرأة من قومه حتى مات. انظر: محمد الصوياني، السيرة النبوية، ص١٣٠، علي الصلابي، السيرة النبوية، ٢/ ١٩٣.

"إن هذه النازلة ملأت قلوب المسلمين غيظا، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب، بل الذي أحرج مشاعرهم في هذه الحادثة أنها كشفت عمَّا تخبئه الوثنية في ضميرها من غلّ كامن على الإسلام وأهله، غلٌ عاصف بكل مبادىء الشرف والوفاء"[1] التي اشتهر بها العرب في الجاهلية وزادها الإسلام قوة وعزًّا، لكن حقد الوثنية الدفين على الإسلام ورجالاته طغى على هذه المبادىء في قلوب أصحابها فأعمى بصائرهم وبصيرتهم[2].

وقد فتك عمرو بن أميّة وهو في طريقه إلى المدينة برجلين من بني كلاب وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، ولكن تبين أن معهما عهدا من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو لم يعلم به مما دفع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الالتزام بدفع ديتهما فقال: «**لقد قتلت قتيلين لأدِيَنَّهما**»، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود[3]، وهذا الذي صار سبباً لغزوة بني النضير فيما بعد.

إجلاء بني النضير:

كان بنو النضير أقوى القبائل اليهودية بالمدينة، وكانت حصونهم غاية في المناعة والقوة وكانوا يعتدون بها ويعتقدون أنها قادرة عل حمايتهم، وكان العرب من حولهم يرون أنها أمنع من أن تقتحم، كما كانوا يملكون أفضل الأراضي الزراعية وأفضل النخيل، وكان زعماؤهم قد أظهروا العداوة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من يوم قدومه إلى المدينة، وظهر الحسد والبغضاء والإصرار على العداوة منهم.

فلما انتصر المسلمون يوم بدر انطلق شاعرهم كعب بن الأشرف يرسل الأشعار في هجاء المسلمين والتحريض عليهم، وذهب إلى مكة يرثي أصحاب القليب - قتلى قريش - ويحرض قريشًا على المسلمين، حتى فاضت نفوس المسلمين بالغيظ منه والحقد عليه؛ لذلك أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتله. ثم إن زعيم بني النضير سلام بن مشكم آوى أبا سفيان في غزوة السويق وأطلعه على أسرار المسلمين[4]، فكأن الخيانة في بني النضير قد ولدت مبكرة حتى إذا ما كانت معركة أحد وهزم فيها المسلمون، وبدأت القبائل العربية تتحرش بهم، حتى استدرجت عددًا منهم، وقتلتهم في الرجيع وبئر معونة، بدأ يهود بني النضير

(١) الغزالي، فقه السيرة، ص٢٧٨.
(٢) السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة، ص ٢٤٣.
(٣) ابن هشام، السيرة النبوية، ٢/ ١٨٣ - ١٨٨، ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٠٩.
(٤) تاريخ الطبري، ٢/ ٢٨٤، فتح الباري، ٧/ ٣٣٢.

يدبرون مؤامرة خطيرة للتخلص من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والقضاء على الوضع القائم في يثرب كله، مستعينين في ذلك بتلك الجماعة المنافقة بزعامة عبد الله بن أبي، وقد بدأ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحس بهذا الموقف في المدينة، لذلك فكر تفكيرًا سياسيًّا بعيدًا عن مرامي الرأي، فرأى ألا شيء خير من أن يستدرجهم ليكشف عن نياتهم[1].

حين قتل عامر بن الطفيل زعيم بني عامر رجال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين ذهبوا إلى منطقة نجد للدعوة إلى الإسلام في بئر معونة - مكان بين حرة بني سليم وبلاد بني عامر شرقي المدينة - نجا منهم رجل هو عمرو بن أمية الضمري الذي قابل في طريقه رجلين من بني عامر فقتلهما ثأرًا بأصحابه، ولم يعلم أن معهما كتاب عهد من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واقتضاه أن يدفع ديتهما. وذهب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى منازل بني النضير - وكانوا حلفاء لبني عامر - في عشرة من كبار أصحابه، وطلب إليهم أن يعاونوا في دفع دية القتيلين، وأظهر اليهود الغبطة لقدومه إليهم، والاستعداد للتعاون، ولكن حين تبسط معهم وجلس إلى جوار بيت من بيوتهم، ائتمروا بينهم أن يصعد أحدهم إلى أعلى الدار فيلقي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صخرة تقتله، وأحس النبي بدقة ملاحظته روح التآمر فيهم، وجاءه الخبر من السماء بما عزموا عليه من شر، فنهض وانطلق بسرعة إلى المدينة، ثم تبعه أصحابه بعد قليل. وقد أدرك اليهود أن تآمرهم قد اكتشف[2].

وقد سجل القرآن الكريم ما كان من مكر يهود بني النضير فقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المائدة: ١١].

فأخرج الطبري عن أبي زياد قال: جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بني النضير ليستعينهم في عقل أصحابه ومعه أبو بكر وعمر وعلي فقال: أعينوني في عقل أصابني، فقالوا: نعم يا أبا القاسم قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابه ينتظرون وجاء رأس القوم، وهو الذي قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماقال، فقال لأصحابه: لاترون أقرب منه الآن، اطرحوا عليه حجارة فاقتلوه، ولاترون شراً أبداً.

فجاءوا إلى رحى لهم عظيمة ليطرحوها عليه، فأمسك الله عنها أيديهم حتى

(١) أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٨.
(٢) الواقدي، ١/ ٣٦٥.

جاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ فأقامه من ثم فأنزل الله عز وجل: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فأخبر الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما أرادوا به[1].

وما كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصل إلى المدينة ويجتمع بأصحابه حتى أرسل اليهود أحد رجاله وهو محمد بن مسلمة الأوسي يقول لهم: "اخرجوا من بلادي. لقد نقضتم العهد الذي جعلت بينكم بما هممتم به من الغدر بي، لقد أجلتكم عشرًا فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه"[2] وأبلست بنو النضير ولم يجدوا جوابا يردون به، سوى أن قالوا لمحمد بن مسلمة: يامحمد، ماكنا نظن أن يجيئنا بهذا رجل من الأوس فقال محمد: تغيرت القلوب، ومحا الإسلام العهود فقالوا: نتحمل فمكثوا أياماً يعدون العدة للرحيل[3].

لكن عبد الله بن أبي - رأس المنافقين وكبيرهم - أرسل إليهم يقول: "اثبتوا وتمنعوا فإنا لن نسلمكم، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم[4]، ولاتخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا فهم يدخلون معكم حصونكم، ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم[5].

فعادت لليهود بعض ثقتهم وتشجع كبيرهم (حيي بن أخطب) وأرسل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدي بن أخطب يقول له: إنا لن نريم - اي لن نبرح - دارنا فاصنع مابدا لك، فكبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكبر المسلمون معه، وقال: حاربت يهود[6].

وهنا نقف على أبواب مؤامرة خطيرة يدبرها اليهود والمنافقون في المدينة.

ها هم بنو النضير يأتمرون بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليقتلوه غدرًا، فلما انكشفت خطتهم، أعلن المنافقون عن المؤامرة كاملة، فإذا جبهة متكاملة تعلن خروجها، وتستعد للحرب، وتعلن في صراحة أن لديها القوة الكافية من عشائرها ومن غيرها من العرب الآخرين، وأن لديها الحصون والقلاع تحتمي بها، وأنها على

(١) انظر: تفسير الطبري، ٦/ ١٤٤ - ١٤٥.
(٢) طبقات بن سعد الكبرى، ٢/ ٥٧، مغازي الواقدي، ١/ ٣٦٣ - ٣٧٠.
(٣) تاريخ الطبري، ٢/ ٥٥٢.
(٤) سيرة ابن هشام، ٣/ ٢١٢.
(٥) تاريخ الطبري، ٢/ ٥٥٣.
(٦) ابن كثير، السيرة النبوية، ٣/ ١٤٦.

استعداد لخوض غمار الحرب حتى الفناء.

إذن فقد كان تقدير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادقًا وكانت شكوكه في محلها، أن المدينة مهددة بالحرب الأهلية يثيرها اليهود والمنافقون ومن ينضم إليهم من الأعراب القريبين، وإذن فهو الخطر الداهم الذي لو سكت عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكان في ذلك القضاء على دولته، فقد أصبح الأعداء يحيطون بها في الداخل والخارج، ولكي يتغلب على هذا الموقف فلا بد من العمل السريع الحاسم، ولا بد من شجاعة وشدة يتذرع بها المسلمون [1].

فقد أخذت اليهود في التجهز للحرب، فرمت حصونها ونقلت إليها الحجارة وشحنتها بالمؤن والذخيرة، واطمأنت إلى قوتها وإلى القوة الخارجية التي يعدها عبد الله بن أبي.

وأسرع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فحاصرهم، واشتبك معهم في القتال عشرين يومًا أظهر فيها اليهود كثيرًا من البسالة، واستماتوا في الدفاع عن حصونهم ودورهم، ولم ينسحبوا من دار إلا بعد أن ييأسوا من الدفاع عنها فيخربوها. وطال حصار الحصون حتى ظن المسلمون استحالة إخراجهم منها، فأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقطع نخيلهم وتحريقها حتى ييئسهم من فائدة المقاومة أو يضطرهم للخروج لقتال المسلمين في معركة مكشوفة.

أما عبد الله بن أبي ومن معه، فقد استطاع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يحول بينهم وبين الاتصال باليهود، فقد أحكم الحصار، فلم يجرؤ عبد الله على التقدم لتنفيذ وعده لليهود، وأذهلته وأصحابه القوة التي واجه بها المسلمون الموقف، وملأ الرعب نفوسهم حينما رأوا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأخذ اليهود بالشدة فيحرق بيوتهم ويقطع نخيلهم وينكل بهم؛ لذلك جبنوا عن أن يتقدموا للمشاركة في القتال، بعد أن حيل بينهم وبين الوصول إلى حصون اليهود، ويئس اليهود من عونهم، فأرسلوا إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم فوافقهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك وقال لهم: «**اخرجوا منها ولكم دماؤكم وما حملت الإبل إلا الحلقة**» - وهي الدروع والسلاح - فرضوا بذلك، وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوء ذهباً وفضة وكان يقول هذا الذي أعددناه لرفع الأرض

(١) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٨٩.

وخفضها وإن كنا تركنا نخلا ففي خيبر النخل .

وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير ، وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن من خلفهم حتى لايشمت بهم المسلمون ، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات الشام [1] .

وارتحل اليهود فمنهم من نزل بخيبر ومنهم من ارتحل إلى الشام وتركوا للمسلمين وراءهم مغانم كثيرة من غلال وسلاح ، ولكن الأرض التي تركوها كانت أفضل ما غنم المسلمون وأنفع ، فقد جعلها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمهاجرين دون الأنصار الذين لم يجدوا في صدورهم حرجًا وآثروا بها المهاجرين ، وبذلك استغنى المهاجرون عن معونة الأنصار فتحسنت الحالة الاقتصادية عند الطرفين [2] .

أما المنافقون ، فقد ضعف أمرهم بعد أن انكشف أمرهم ودمغوا بالجبن والعار ، ولم يعاقبهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكنه لم يعد يفكر في أمرهم كثيرًا . وفي شأن بني النضير وتآمر المنافقين معهم نزلت سورة كاملة من سور القرآن هي سورة الحشر .

وبخروج بني النضير ، ضعف شأن اليهود بالمدينة ، ولكن بقيت لهم جولة أخرى يدبرها بنو النضير بتجميع الأحزاب [3] .

غزوة ذات الرقاع [4]:

بعد أُحد اشتد نشاط القبائل ضد المدينة واتسعت دائرته ، وتنوعت وسائله ، فقد تجرأت القبائل على حرب المدينة والنيل من المسلمين بعد هزيمتهم في أحد أمام قريش ، وكانت بدر قد أوجدت العرب في قلوبهم ، لكنهم بعد أحد بدؤوا

---

(١) السيرة الحلبية ، ٢/ ٥٦٦ .

(٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ٣/ ٢١٢ .

(٣) انظر: مغازي الواقدي ٢٨٢ - ٢٩٠ ، طبقات ابن سعد ٣/ ٩٨ - ١٠٠ ، أحمد الشريف ، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول ، ص ٣٩٠ .

(٤) سميت هذه الغزوة بذات الرقاع لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر ، وقيل لأنهم رقعوا راياتهم ، وقيل لشجرة كانت اسمها ذات الرقاع ، وقيل لأن المسلمين نزلوا في أرض كان فيها بقع بيض وسود مختلفة ، فسميت لذلك والصحيح: لأنهم كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق ، فقد روى الشيخان بسنديهما عن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه فنقبت أقدامنا ونقبت قدماي وسقطت أظفاري وكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب بالخرق على أرجلنا .انظر: صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، باب غزوة ذات الرقاع ، ٥/ ١٤٥ .

يستعيدون شجاعتهم ويكيدون للمدينة ويستعدون لضربها .

وكان أول ما بلغ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد شهرين من أحد أن طليحة وسلمة بن خويلد وكانا على رأس بني أسد ، يحرضان قومهما ومن أطاعهما يريدان مهاجمة المدينة ؛ ليصيبوا من أطرافها ؛ وليغنموا من نَعم المسلمين التي ترعى الزروع المحيطة بمدينتهم ، وإنما شجعهم على ذلك اعتقادهم أن المسلمين لا يزالون مضعضعين من أثر أحد ، فما كاد هذا الخبر يبلغ مسامع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى عقد لأحد رجاله - سلمة بن عبد الأسد - لواء سرية تبلغ عدتها مائة وخمسون رجلًا منهم كثير من كبار المسلمين وشجعانهم فباغتوا الأعداء على حين غفلة فأوقعوا بهم هزيمة سريعة ألجأتهم إلى الفرار فطاردوهم وظفروا بما معهم غنيمة للمسلمين[1] .

وكذلك اتصل بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد ذلك أن خالد بن سفيان بن نبيح اللحياني الهذلي ، زعيم لحيان من هذيل مقيم بنخلة أو بعرنة - من أرض هذيل - وأنه يجمع الجموع ليغزوه . فدعا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه أحد رجاله - عبد الله بن أنيس - فسار عبد الله حتى التقى بخالد ، واستطاع أن يوهمه بأنه سمع تجمعه لمحمد ، فجاء ينضم إليه . فلما تأكد من صحة ما علم المسلمون غافله حتى إذا وجد منهم غرة قتله . وعاد إلى المدينة فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهدأت بنو لحيان بعد موت زعيمها زمنًا ، عادت بعده تفكر في الثأر عن طريق الحيلة والغدر .

ثم دبروا أمر الثأر عن طريق رهط من عَضْل والقارة من بني الهون ابن خزيمة ، فقدموا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون له: إن فينا إسلامًا فابعث معنا نفرًا من أصحابك يعلموننا شرائعه ويقرئوننا القرآن . فبعث ستة من كبار أصحابه خرجوا مع الرهط ، حتى إذا بلغوا ماء لهذيل بناحية تُدعى الرجيع ، غدروا بهم ، واستصرخوا هذيلًا عليهم ، ولم يرع هؤلاء الرجال الستة وهم في رحالهم إلا الرجال وبأيديهم السيوف قد غشوهم ، ودافع المسلمون عن أنفسهم حتى قتل منهم ثلاثة واستأسر الثلاثة الآخرون . فأما أحدهم فتخلص من قيده ودافع عن نفسه حتى قتل . وأما الآخران فقد باعتهما هذيل إلى قريش غدرًا ، وثأرًا بمن قتل من رجالها يوم بدر[2] .

ولم يكن حزن المسلمين قد خفَّ على من قتل من أصحابهم يوم الرجيع ولم

(١) الواقدي ، ٢٦٤ - ٢٦٨ .

(٢) ابن هشام ، ٣/ ١٦٠ - ١٨٣ . ابن سعد ، ٣/ ٩٦ - ٩٨ .

تكن أشعار حسان بن ثابت يرسلها في رثاء هؤلاء الرجال قد خفتت أنغامها الحزينة - حين فوجئ المسلمون بحادث هو أنكى عليهم من غدر هذيل، وأشد ألمًا للمسلمين وإثارة لعواطفهم، ذلك هو غدر بني عامر بوفد آخر من المسلمين بلغت عدته أربعين رجلًا، وقتلهم في بئر معونة إلا رجلًا منهم هو عمرو بن أمية الضمري أسره عامر بن الطفيل ثم خلى عنه حين علم أنه من كنانة [1].

كان لهذين الحادثين وقع أليم في نفس النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعاه إلى زيادة الحيطة والحذر في معاملة القبائل، واتخاذ الشدة معها، إذ إن مثل هذه الأمور لو تكررت، استخفت العرب بشأن المسلمين وتجرأت القبائل عليهم، وعند ذلك يرفع النفاق رأسه في المدينة، ويجد اليهود لهم مجالًا لإيقاع الفتنة والائتمار بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالمسلمين، وربما جرَّ ذلك إلى تكتل أعدائهم عليهم في الخارج، نتيجة لروح الاستخفاف التي تثيرها أمثال هذه الجرأة على المسلمين، وقد كاد هذا يتم فعلًا، فقد تآمر المنافقون واليهود في المدينة على حياة الرسول وإثارة الحرب الداخلية في المدينة مما أدى إلى إجلاء بني النضير كما قدمنا.

فما أن وصل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة بعد إجلاء بني النضير، حتى حملت إليه الاستخبارات الإسلامية أن جماعة من غطفان يجمعون له يريدون حربه، فخرج بنفسه على رأس أربعمائة من أصحابه إلى محالهم بمكان يقال له: ذات الرقاع [2] ففر الأعراب من وجهه، فاستاق من وجد من أموالهم ونسائهم وعاد إلى المدينة [3].

وفي هذه الغزوة شرعت صلاة الخوف وبين القرآن الكريم صفة الصلاة ساعة مواجهة العدو وهي قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فقد صلى المسلمون صلاة الخوف، وصفة هذه الصلاة أن طائفة صفت معه،

(١) ابن هشام، ٣/ ١٨٣، مكة والمدينة في الجاهلية وعهد للرسول، ص ٣٩٩.
(٢) وهو موضع في وادي القرى على طريق تبوك.
(٣) انظر: طبقات ابن سعد، ٣/ ١٠٢، ١٠٣.

وطائفة في وجه العدو . فصلى بالتي معه ركعة ثم ثبت قائماً ، وأتموا لأنفسهم ، ثم انصرفوا فصفوا وجاه العدو ، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت في صلاته ، ثم ثبت جالساً وأتموا لأنفسهم ثم سلم بهم[1] .

وفي هذه الغزوة وقعت قصة الرجل الذي اخترط سيفه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم تحت الشجرة (واسم الأعرابي: غورث ابن الحارث) ، وقد جاء في صحيح البخاري عن جابر عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: غزونا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غزوة نجد ، فلمّا أدركته القائلة[2] وهو في واد كثير العضاه[3] فنزل تحت شجرة واستظلّ بها وعلّق سيفه ، فتفرّق النّاس في الشّجر يستظلّون . وبينا نحن كذلك إذ دعانا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئنا . فإذا أعرابيّ قاعد بين يديه ، فقال: «**إنّ هذا أتاني وأنا نائم، فاخترط سيفي**[4]**، فاستيقظت وهو قائم على رأسي مخترط سيفي صلتا**[5]**، قال: ما يمنعك منّي؟ قلت: الله، فشامه**[6] **ثمّ قعد، فهو هذا**» . قال: ولم يعاقبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)[7] .

وقد عاهد غورث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لايقاتله ولايكون مع قوم يقاتلونه ، فخلى سبيله ، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)[8] .

غزوة بدر الموعد:

بعد أن كسر المسلمون شوكة القبائل العربية الضاربة علي تخوم المدينة ، وأعاد الهيبة في قلوبهم ، وأمن شرهم ومكرهم وخيانتهم ، شرع الحبيب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التجهز لملاقاة أبو سفيان في الموعد الذي كان ضربه ، وكان أبو سفيان يوم أحد نادى: موعدنا وإياكم بدر في عامنا المستقبل . فأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض أصحابه أن يجيبه بنعم ؛ فأقام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منصرفه من ذات الرقاع ثم خرج على رأس جيش من أصحابه قوامه ألف

---

(١) مسلم (٨٤٢) .
(٢) القائلة: نصف النهار ، وفي الصحاح: الظهيرة .
(٣) العضاهة: بالكسر أعظم الشجر أو كل ذات شوك ، والجمع عضاه وعضون .
(٤) اخترط سيفي: استله .
(٥) الصّلت من السيوف: الصقيل الماضي .
(٦) شامه: أي أغمده .
(٧) البخاري الفتح ٧ (٤١٣٩) واللفظ له . ومسلم (٨٤٣) .
(٨) رواه الامام أحمد ، محمد بن يوسف الصالحي الشامي ، سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد ، ٥/ ١٨٣ .

وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الخيّالة وذلك في ذي القعدة سنة ٤ هـ، وحمل لواء الجيش علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوصلوا بدرا فأقاموا فيها ثمانية أيام بانتظار وصول قوات المشركين من قريش بقيادة أبي سفيان بحسب الموعد بين الطرفين، غير أن أحدا من المشركين لم يصل إلى بدر، وكان أبو سفيان قد جمع قوات قريش وحلفائها التي تألفت من ألفي مقاتل معهم خمسون فرسا، فلما وصلوا إلى مر الظهران، نزلوا على مياه مجنّة على بعد أربعين ميلا من مكة، ثم عاد بهم أبو سفيان إلى مكة بحجة أن ذلك العام كان عام جدب، بعد أن خطب فيهم وقال: يامعشر قريش إنه لايصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإن عامكم هذا عام جدب وإني راجع فارجعوا[1].

وأقبل مخشي بن عمرو الضمري وهو الذي وادع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على بني ضمرة في غزوة ودان، فالتقى برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بدر وقال: يامحمد أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: «**نعم، يا أخا بني ضمرة، وإن شئت مع ذلك رددنا إليك ماكان بيننا وبينك، ثم جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك**»، قال. لا والله يامحمد مالنا بذلك منك من حاجة[2].

وكان لإخلاف قريش موعدهم مع الرسول والمسلمين صدى واسع بين القبائل العربية، وأثر كبير في الارتفاع بمكانة المسلمين واستعادتهم لهيبتهم التي كانت قد انتكست بعد معركة أحد[3].

غزوة دومة الجندل:

أتاحت التحركات العسكرية التي قام بها المسلمون التي أعقبت معركة أحد للدولة الإسلامية في المدينة فرصة الاستقرار، كما أن إخراج بني النضير، واستيلاء المسلمين على أراضيهم ونخيلهم، أدى إلى تحسن حالة المسلمين الاقتصادية في المدينة؛ فقد وزعت الأراضي على المهاجرين فاستقلوا بأمر معاشهم واستغنوا عن معونة الأنصار فتحسنت حالة الطرفين جميعًا، كما ضعف أمر النفاق، وخفت قوة المعارضة الداخلية في المدينة، وكانت الفترة التي تلت خروج بني النضير فترة سكينة وطمأنينة استراح إليها المسلمون. واستطاعوا بعد أن

(١) ابن هشام - السيرة، ٣/ ٢٩٢، الواقدي، مغازي، ١/ ٣٨٤، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٥٩، ابن القيم، زاد المعاد، ٢/ ١٢٠، ابن كثير، البداية والنهاية، ٤/ ٨٧.

(٢) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٢٩٢.

(٣) انظر: موسوعة نظرة النعيم، ١/ ٣١٨، ٣١٩.

استدار العام أن يخرجوا إلى بدر استجابة لوعد أبي سفيان يوم أحد، لكن قريشًا لم تكن في حالة من القوة تمكنها من الوفاء بوعدها، فلم تذهب إلى بدر واكتفت بأن تتظاهر بالخروج، وترسل تهدد المسلمين. وفي بدر استفاد المسلمون من تجارة الموسم فربحوا، كما جدد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عهوده مع القبائل التي وادعته من قبل، وكان من نتيجة تخلف قريش وخروج المسلمين أن انمحت آثار أحد واستقر سلطان المسلمين في هذه المنطقة وتدعمت هيبتهم، فتفرغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للتوجه إلى أقصي حدود العرب، ومهاجمة دومة الجندل، حتى تصير السيطرة للمسلمين على الموقف، ويعترف بذلك الموالون والمعادون.

واتفقت كتب المغازي والسير على أنها كانت في ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهرا من الهجرة النبوية [1]. ويرجع الواقدي سببها إلى أنه قد بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن بدومة الجندل جمعا كثيرا من الناس وأنهم يظلمون من مرّ بهم من تجار الميرة والمتاع المتنقلين بين المدن - وكان بدومة الجندل سوق عظيم وتجارة رائجة، وأنه قد ضوى إليهم قوم من العرب كثير، وأنهم يريدون التوجه إلى المدينة طمعا في أموالها [2]، فندب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس وخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عذرة، وقبل وصولهم دومة الجندل هجموا علي ماشيتهم ورعائهم، فأصابوا قسما منها، وهرب من هرب، فبلغ الخبر دومة الجندل، فتهاربوا إذ لم يجد المسلمون أحدا فيها عند وصولهم، فأقام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين فيها أياما، وبعث بالسرايا من هناك إلى مختلف الأنحاء وكانت ترجع بالإبل فقط، إلّا سريّة محمد بن مسلمة الذي أسر رجلا منهم وعرض عليه الإسلام فأسلم. وعاد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسلمين إلى المدينة [3].

حقيقة أن الدولة الإسلامية في المدينة وانطلاقاً من شعورها أنها أصبحت دولة لها جميع مقومات الدولة تهتم بجميع النواحي السياسية والاقتصادية

---

(١) ابن هشام، السيرة، ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨، الواقدي، المغازي، ١/ ٤٠٢، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٦٢.

(٢) الواقدي، المغازي، ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٦٢ - ٦٣، وقد أضاف الواقدي سببا آخر وهو أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد أن يقترب بتحركاته العسكرية من حدود الشام لكي يفزع الروم، المغازي ١/ ٤٠٣، وانظر ابن هشام، السيرة، ٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨.

(٣) الواقدي، المغازي، ١/ ٤٠٢ - ٤٠٤، ابن سعد، الطبقات، ٢/ ٦٢ - ٦٣.

والاجتماعية والثقافية ، لو أغفلت أمر هذه التجمعات والتحركات التي تهدف إلي إيقاع بها ، لاستفحل شأنه ، وأدي لضياع وضعها الاقتصادي المميز ، كما أن تحرك المسلمين في المدينة جاء بهدف تأكيد فرض نفوذهم على هذه المنطقة كلها ، وإشعار سكانها بأنهم في حماية وتحت مسؤولية دولية قوية قادرة علي توفير الحماية لرعاياها ، لذلك فهم يؤمنون لهم الطرق ، ويحمون لهم تجارتهم ويحاربون كل إرهاب من شأنه أن يزعجهم أو يعرضهم للخطر وفي إطار الحرب المستمرة مع قريش ، فكان هذا التحرك يهدف إلي حرمان قريش من أي حليف تجاري قد يمدها بما تحتاج من التجارة ، وصرف أنظارهم عن هذه المنطقة التجارية الهامة .

كما أن خطة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذه الغزوة كانت ترمي إلى أهداف عديد ، فهي غزوة ، وحرب استطلاعية تمسح الجزيرة العربية ، وتتعرف على مراكز القوى فيها ، وهي حرب إعلامية تأتي على أعقاب بدر الموعد ، وتستثمر انتصاراتها ، وهي حرب عسكرية تريد أن تصد هجوماً محتملاً على المسلمين حيث ضوى إليها قوم من العرب كثير يريدون أن يدنوا من المدينة ، وهي حرب سياسية تريد أن تجهض من تحركات القبائل المحتمل أن تتحرك بعد أنباء غزوة أحد لتقصد المدينة وتستبيحها ، [1] كما أن سير الجيش الإسلامي هذه المسافات الطويلة قد كان فيه تدريب له على السير إلى الجهات النائية ، وفي أرض لم يعهدوها من قبل ولذلك تعتبر هذه الغزوة فاتحة سير الجيوش الإسلامية للفتوحات العظيمة في بلاد آسيا وإفريقيا فيما بعد [2] .

كما يمكن القول أن هذه الغزوة كانت تهدف إلي إعداد العرب وتأهيلهم نفسياً وإزالة الرهبة من نفوسهم من مواجهة الروم بعدما عاشوا طويلا يتملكهم الخوف والهبة من مواجهة الروم ، والتأكيد علي عالمية الإسلام وإنها ليست خاصة بقوم أو دولة أو جنس ، ولابد من إيصالها إلي العالم أجمع [3] .

(١) الغضبان ، التربية القيادية ، ٣/ ٣٧٢ .
(٢) أبو شهبة ، السيرة النبوية ، ص٢٥١ ، ٢٥٢ .
(٣) د . عبدالرحمن الشجاع ، دراسات في عهد النبوة ، ص١٤٤ .

غزوة بني المصطلق [1] :

لقد كان لهذة الغزوة أهمية كبيرة جدا في تاريخ المسلمين لما تمخض عنها من نتائج ، وما تضمنته من عبر وعظات ، وما صاحبها من وقائع أحدثت البلبلة والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وتمخضت عن افتضاح المنافقين ، والتشريعات التعزيرية التي أعطت المجتمع الإسلامي صورة خاصة من النبل والكرامة وطهارة النفوس .

وبنو المصطلق هم بطن فرع من خزاعة والمصطلق جدهم وهو جذيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر ماء السماء[2] .

واختلفوا في خزاعة[3] فمنهم من قال إنها قبيلة عدنانية ومنهم من ذهب إلى أنها قبيلة قحطانية يمنية والراجح ماذهب إليه أكثر العلماء من أنها قبيلة قحطانية يمنية[4] .

وكانت قبيلة بني المصطلق على طريق قريش التجارية إلى الشام ، مما جعلها تتأخر في إعلان إسلامها ، حفاظاً على مصالحها . ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يأمن جانبها بحكم كونها فرعاً من خزاعة التي كانت محل عناية ونصح للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، رغم عدم دخولها في الإسلام ، ويتضح ذلك جلياً في موقف معبد بن أبي معبد الخزاعي في حمراء الأسد ، التي وقعت عقب غزوة أحد مباشرة[5] .

---

(١) المُصْطَلِق ، بضم الميم ، وسكون الصاد ، وفتح الطاء ، وكسر اللام ، مفتعل من الصلق وهو رفع الصوت ، وهو لقب لرجل اسمه جذيمة بن سعد .
ويقال لها المريسيع أيضًا ، بضم الميم وفتح الراء وسكون التحتانيتين ، وكسر السين المهملة ، وهو ماء لبني خزاعة ، مأخوذ من قولهم: رسعت العين إذا دمعت من فساد بها .

(٢) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص٤٥ .

(٣) خزاعة من التخزع وهو التأخر والمفارقة ، وذلك أن خزاعة انخزعت من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام ، فنزلت بمر الظهران وأقامت بهما .

(٤) إبراهيم بن إبراهيم قريبي ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص٤٥ .

(٥) لما خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجيشه إلى حمراء الأسد بعد أحد يتبع جيش أبي سفيان خشية أن تسوّل لهم أنفسهم الكرة على المسلمين لاستئصالهم - وكان الأمر كما توقع صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلما وصل حمراء الأسد مرّ به معبد بن أبي معبد الخزاعي فقال: "يا محمد والله لقد عز علينا ما أصابك ولوددنا أن الله عافاك مما حدث بك - "وكان معبد إذ ذاك مشركاً ولكن خزاعة كانت موضع سر ونصح لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتهامة ، مسلمهم

وأول إشارة إلى اتخاذهم موقفاً عدائياً واضحاً ضد المسلمين هو إسهامهم مع قريش في موقعة أحد، ضمن كتلة الأحابيش [1]، التي اشتركت في المعركة تأييداً لقريش [2].

حتى كانت غزوة أحد وما لحق بالمسلمين فيها من خسائر جسيمة ذات أثر عظيم في أرجاء شبه الجزيرة العربية، وداخل المدينة المنورة نفسها، فضعفت هيبة المسلمين وتجرّأ عليهم الأعراب، وشمت بهم اليهود والمنافقون، وقاموا بدعاية واسعة ضدهم، وصار المسلمون لا يحاربون قريشاً وحدها وإنما يواجهون الجزيرة

ومشركهم فكانوا لا يخفون عنه شيئاً حدث في مكة - ثم خرج من عند رسول الله ﷺ متجهاً نحو مكة، فلقي أبا سفيان بن حرب وجماعته بالروحاء - على طريق مكة تبعد عن المدينة بـ ٧٣ كيلومتراً - وقد أجمعوا الرجعة إلى المدينة وقالوا: "أصبنا أشرافهم وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم، وبينما هم كذلك طلع عليهم معبد بن أبي معبد الخزاعي فلما رآه أبو سفيان قال: "ماوراءك يا معبد؟" قال: "محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، ولا قبل لكم به، وهم يتحرّقون عليكم تحرّقاً قد اجتمع معه من كان تخلف عنه في يومكم وندموا على ما صنعوا فيهم من الحنق ما لم أر مثله قط". فاندهش أبو سفيان، وقال: "ويحك يا معبد انظر ما تقول؟" فقال معبد: "والله ما أرى أن ترتحل من مكانك هذا حتى ترى نواصي الخيل". قال أبو سفيان: "والله لقد أجمعنا الكرة عليهم، لنستأصل بقيتهم"، قال: "فإني أنهاك عن ذلك. والله لقد حملني ما رأيت على أن قلت فيهم أبياتاً من الشعر". قال: "وما قلت؟" فأنشده شعراً فيه تحذير له من لقاء المسلمين، وبيان قوتهم، فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه، وانسحبوا في أسرع وقت يواصلون سيرهم نحو مكة. فهذا يدل على إخلاص بعض رجال هذه القبيلة لرسول الله ﷺ وثقته بهم. سيرة ابن هشام، ٢/ ١٠٢، ومغازي الواقدي، ١/ ٣٣٨، وتاريخ خليفة، ص ٧٤، والبداية والنهاية لابن كثير، ٤/ ٤٩، والاستيعاب لابن عبد البر، ٣/ ٤٥٤، وأسد الغابة لابن الأثير، ٥/ ٢١٧ - ٢١٨، إبراهيم بن إبراهيم قريبي، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص٥٥.

(١) الأحابيش هم بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة، والهون بن خزيمة بن مدركة، وبنو المصطلق من خزاعة، انظر: سيرة ابن هشام، ١/ ٣٧٣، المعارف لابن قتيبة، ص٢٦، أنساب الأشراف للبلاذري، ص٥٢، فتح الباري لابن حجر، ٥/ ٣٣٤ و٣٤٢، وسمّوا بذلك: لأنهم تحالفوا وتعاقدوا مع قريش على أنهم يد على من سواهم، وكان ذلك عند جبل بأسفل مكة يقال به ((حبشي)) فنسبوا إليه، وقيل سمّوا بذلك لتجمّعهم، والتحبّش التجمع، والحباشة الجماعة. المعارف لابن قتيبة، ص ٢٦٩، لسان العرب لابن منظور، ٨/ ١٦٦، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، ٢/ ٢٦٧، فتح الباري ٥/ ٣٣٤.

(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٦١، مغازي الواقدي، ١/ ٢٠٠، الكامل لابن الأثير، ٢/ ١٤٩، زاد المعاد لابن القيم، ٢/ ١٠٢، البداية والنهاية لابن كثير، ٤/ ١٠.

برمتها .

وسارعت عدة قبائل إلى التجمّع للإغارة على المدينة والقضاء على المسلمين فيها ، كما حدث ذلك من بني أسد بقيادة طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين ، من القبائل النجدية ، خالد بن سفيان الهذلي الذي كان مقيماً في عرنة قرب عرفات .

فلما علم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتجمّعهم ومحاولتهم اقتحام المدينة بعث إليهم من يؤدّبهم في عقر دارهم ، فكان في ذلك ضربة لهم وعبرة لغيرهم ممن يحاول السير على منوالهم . وما نزل بهم حلّ بغيرهم من بني ثعلبة وبني محارب من القبائل الغطفانية التي حاولت الهجوم على المدينة المنورة كذلك فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على رأس سبعمائة مقاتل فساروا حتى نزلوا ديار العدو فلم يجدوا فيها أحداً غير نسوة ، فأخذوهن ، فبلغ الخبر رجالهن فخافوا وتفرّقوا في رؤوس الجبال ، ورجع المسلمون معزّزي الجانب ، وعرفت هذه الغزوة بغزوة ذا الرقاع[1] .

ثم جاء دور بني المصطلق ؛ إذ إنها كانت ضمن كتلة الأحابيش التي انضمت إلى جانب قريش في معركة أحد ، ثم أخذت بعد رجوعها من معركة أحد تعد العدة وتجمع الجموع ، وتفتني السلاح والخيل ، على مدى سنتين ، كان المسلمون خلال تلك الفترة يواجهون تحرّكات قبائل الجزيرة ، فهم ما بين سرية وغزوة .

فانتهزت قبيلة بني المصطلق فرصة انشغال المسلمين ببقية القبائل ، فأخذت تجمع الجموع ، وتسعى في القبائل المجاورة لها ، تحرّضها وتشجّعها على الانضمام معها في الهجوم على دولة الإسلام .

ولما وصل خبرهم إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قدّر للموقف قدره ، وجعل يفكّر في مواجهة هذه القبيلة التي استعدت للمعركة استعداداً كاملاً ، فبدأ بمراقبة حركات هذا العدو مراقبة شديدة ، ثم أمر بريدة بن الحصيب بالذهاب إليهم ليعرف وجهتهم وقوّتهم ، فخرج مسرعاً حتى وصل عندهم فوجدهم قوماً مغرورين بأنفسهم وبما لديهم من القوة قد ألبّوا القبائل وجمعوا الجموع ، فاتصل برئيسهم الحارث بن أبي ضرار ، فسأله الحارث: "من الرجل؟" قال: "رجل منكم قدمت لما بلغني عن جمعكم لهذا الرجل ، فأسير في قومي ومن أطاعني ، فتكون يدنا

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٦٩ .

واحدة ، حتى نستأصله" ، فازداد فرح القوم بانضمام قوة جديدة إلى قوتهم ، فقال له الحارث: "فنحن على ذلك فعجّل علينا" ، قال بريدة: "أركب الآن فآتيكم بجمع كثيف من قومي ومن أطاعني فسرّوا بذلك منه فمضى إلى المدينة وأخبر المسلمين بأمرهم[1] .

وبعد أن تأكد الحبيب محمد من هذه الأنباء شرع في تجهيز الجيش لمقاتلة بني المصطلق ودفع أذاهم ، وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة [2] خرج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المدينة في سبعمائة مقاتل ، وثلاثين فارساً متوجهاً إلى بني المصطلق [3] ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام ، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد ، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين ، فقد روى البخاري ومسلم[4] ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أغار عليهم وهم غارون - أي غافلون - وأنعامهم تسقى على الماء ، فقتل مقاتلهم وسبى ذراريهم ، وأصاب يومئذ جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار[5] .

وعاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من هذه الغزوة إلى المدينة هلال رمضان ، بعد أن غاب عنها ثمانية وعشرين يوما [6] .

ولما قسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا بني المصطلق وكان من بين الأسرى جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية ، ، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن الشماس الأنصاري ، فكاتبها على نفسها ، فأتت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تستعينه في كتابتها ، وكانت بركة على قومها فتقول السيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (لما

---

(١) انظر: طبقات ابن سعد ، ٢/ ٦٣ ، ومغازي الواقدي ، ١/ ٤٠٤ - ٤٠٥ ، وشرح المواهب اللدنية ، ٢/ ٩٦ ، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٧١ .

(٢) ابن كثير - البداية ، ٣/ ٢٤٢ ، ٤/ ١٥٦ وهذا هو الراجح حكاه موسى بن عقبة عن الزهري وعن عروة ، وتابعه أبو معشر والواقدي وابن سعد ، انظر ابن حجر فتح الباري ٧/ ٤٣٠ ، مغازي ١/ ٤٠٤ ، ابن سعد - الطبقات ٢/ ٦٣ ، البيهقي - السنن ٩/ ٥٤ ، ابن القيم ، زاد المعاد ٣/ ١٢٥ ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ٢/ ٢٧٥ .

(٣) الذهبي ، تاريخ الإسلام (المغازي) ، ١/ ٢٣٠ ، الواقدي ، مغازي ١/ ٤٠٤ .

(٤) البخاري ، الصحيح ٣/ ١٢٩ ، مسلم ، الصحيح ٥/ ١٣٩ .

(٥) الواقدي ، المغازي ١/ ١٤٠ ، ابن سعد ، الطبقات ٢/ ٦٤ ويذكر الواقدي أن الغنائم كانت ألفي بعير وخمسة آلاف شاة ، وأن السبي كان مائتي أهل بيت . وأورد الزرقاني رواية له أن السبي أكثر من سبعمائة ، شرح المواهب اللدنية ٣/ ٢٤٥ .

(٦) الواقدي ، مغازي ١/ ٤٠٤ .

قسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة [1] لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ماهو أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها مارأيت، فدخلت عليه فقالت: يارسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء مالم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكاتبته على نفسي فجئتك أستعينك على كتابتي.

قال: «**فهل لك في خير من ذلك؟**» قالت: وماهو يارسول الله؟ قال: «**أقض عنك كتابك وأتزوجك**»، قالت: نعم يارسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد تزوج جويرية بنت الحارث. فقال الناس: أصهار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأرسلوا ما بأيديهم. قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة [2] أهل بيت من بني المصطلق فما أعلم امرأة

---

(١) ملاحة: بضم الميم وتشديد اللام أي شديدة الملاحة، وهو من أبنية المبالغة، انظر غريب الحديث لابن الأثير ٤/ ٣٥٥. وكنّت به عائشة عن جمالها، وكانت جويرية قبل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحت مسافع بن صفوان المصطلق ذي الشفر بن سرح بن مالك ابن جذيمة، فقتل يوم المريسيع. انظر طبقات ابن سعد، ٨/ ١١٦، وأسد الغابة لابن الأثير، ٧/ ٥٦، والإصابة لابن حجر، ٤/ ٢٦٥. وعند ابن إسحاق كانت تحت ابن عم لها يقال له: ابن ذي الشفر انظر سيرة ابن إسحاق المسماة المبتدأ والمبعث والمغازي، ١/ ٢٤٥، والإصابة لابن حجر، ٤/ ٢٦٦.
وكانت وفاتها سنة ٥٦ المصادر السابقة. وهي التي روت حديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: "ما زلت على الحال التي فارقتك عليها" قالت: نعم، يا رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم، لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلمات" انظر صحيح مسلم ٨/ ٨٣، كتاب الذكر والدعاء وهو من رواية عبد الله بن عباس عنها. قال الذهبي في تجريد أسماء الصحابة ٢/ ٢٧١ جويرية التي قال لها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لقد قلت بعدك أربع كلمات لو وزنت بما قلت" ... إلخ.

(٢) (مئة أهل بيت) قال صاحب عون المعبود: "كذا بالإضافة أي مئة طائفة كل واحدة منهن أهل بيت، ولم تقل مائة هم أهل بيت لإيهام أنهم مائة نفس كلهم أهل بيت وليس مراداً،

أعظم بركة على قومها منها[1] .

وهكذا كان زواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جويرية بركة على قومها وعزا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم ، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمة في زواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها .

وتعتبر غزوة بني المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها . وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم ، واستكثروا على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وحيال هذا العتق الجماعي ، وإزاء هذه الأريحية الفذة ، دخلت القبيلة كلها في دين الله .

إن مرد هذا الحدث التاريخي وسببه البعيد ، هو حب الصحابة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكريمهم إياه ، وإكبارهم شخصه العظيم ، وكذلك يؤتي الحب النبوي هذه الثمار الطيبة ، ويصنع هذه المآثر الفريدة في التاريخ .

لقد كان زواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جويرية بنت الحارث له أبعاده وتحققت تلك الأبعاد بإسلام قومها ، فقد كان الزواج منها من أهدافه الطمع في إسلام قومها ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ، ويعز الإسلام وهذه مصلحة إسلامية بعيدة يسر الله هذا الزواج ، وباركه ، وحقق الأمل البعيد المنشود من ورائه ، فأسلمت القبيلة كلها بإسلام جويرية ، وإسلام أبيها الحارث ، فقد عاد هذا الزواج على المسلمين بالبركة والقوة ، والدعم المادي والأدبي معاً للإسلام والمسلمين[2] .

وقد حاول المنافقون [3] في هذه الغزوة إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار ،

وقد روى أنهم كانوا أكثر من سبعمائة قاله الزرقاني" . عون المعبود ، ١٠/ ٤٤٤ ، وانظر شرح المواهب اللدنية للزرقاني ، ٣/ ٢٤٥ .

(١) البداية والنهاية ، ٤/ ١٦١ ، ١٦٠ .

(٢) د. محمد فيض الله ، صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة ، ص٩٩ - ١٠٠ .

(٣) النفاق لغة: ضرب من التمويه والستر والتغطية ، وحقيقته: إظهار شيء وإبطان ضده . مشتق من النافقاء أحد جحرة ، اليربوع ، يكتمها ويظهر غيرها ، فإذا طلب من واحد هرب إلى الآخر وخرج منه ، وشرعا: هو إظهار الإيمان وستر الكفر .
واليربوع: حيوان طويل الرجلين قصير اليدين جدا ، وله ذنب كذنب الجرذ ، يسكن باطن الأرض ، وتسمى حفرته النافقاء والقاصعاء والراهطاء ، فإذا طلب من إحدى هذه الفتحات خرج من الأخرى ، وظاهر بيته تراب وباطنه حفر ، وكذلك المنافق: ظاهره إيمان

وكان قد خرج في هذة الغزوة عدد كبير من المنافقين مع المسلمين وكان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، لكنهم لما رأوا اطراد النصر للمسلمين خرجوا طمعاً في الغنيمة[1]، وهؤلاء قد ساءهم كثيرا ما تحقق للمسلمين من نصر وغنائم في هذه الغزوة وسعوا إلي إفساد فرحة المسلمين وعمدوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، يقول جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: غزونا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد ثاب[2] معه ناس من المهاجرين، حتى كثروا، وكان من المهاجرين رجل لعاب[3]، فكسع أنصاريا، فغضب الأنصاري غضبا شديدا حتى تداعوا وقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فخرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ما بال دعوى الجاهلية**»، ثم قال: «**ما شأنهم؟**» فأخبر بكسعة المهاجري، الأنصاري، قال: فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوها فإنها خبيثة**»، وقال عبد الله ابن أبي ابن سلول: "أقد تداعوا علينا، لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل"، فقال عمر: "ألا نقتل يا رسول هذا الخبيث" لعبد الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه**»[4].

ويقول زيد بن أرقم عن ذلك: كنت في غزاة[5] فسمعت عبدالله بن أبي يقول: لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذلَّ، فذكرت ذلك لعمي[6]، فذكره للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى عبدالله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ماقالوا. فكذبني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ

وباطنه كفر. انظر المصباح المنير، ١/ ١٠٠، حياة الحيوان، للدميري، ٢/ ٤٣٥.

(١) حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول، ١/ ٣١٨.

(٢) ثاب معه: أي اجتمع.

(٣) رجل لعاب: أي بطال، وقيل كان يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وهو جهجاه ابن قيس الغفاري، فتح الباري ٦/ ٥٤٦ وسماه ابن إسحاق: جهجاه بن مسعود. وكان جهجاه من المتألبين على عثمان بن عفان وأنه قام إلى عثمان وهو على المنبر فأخذ عصاه وكسرها فما حال عليه الحول حتى أرسل الله في يده الأكلة فمات منها، هكذا نقل ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٥٣.

(٤) البخاري ٤/ ١٤٦ - ١٤٧، كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية.

(٥) غزاة: صرحت الروايات الأخرى بأنها بني المصطلق.

(٦) يريد بعمة سعد بن عبادة وهو رأس الخزرج وليس عمه حقيقة.

﴿الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ واللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقين: ١] فبعث إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقرأ، فقال: «**إن الله قد صدقك يازيد**»[(١)].

وعند ابن إسحاق قال: "فبينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على ذلك الماء[(٢)] وردت واردة الناس، ومع عمر بن لخطاب أجير له، من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر[(٣)] الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أبي ابن سلول، وعنده رهط من قومه، فيهم: زيد بن أرقم غلام حدث، فقال: "أو قد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعدنا وجلابيب[(٤)] قريش إلا كما قال الأول[(٥)]: سمن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، ثم أقبل على من حضره من قومه، فقال لهم: "هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموه بلادكم، وقاسمتموه أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم"، فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك عند فراغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عدوه، فأخبره، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: "مر به عباد بن بشر فليقتله"، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لا، ولكن أذن بالرحيل**»، وذلك ساعة لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرتحل فيها، فارتحل الناس، وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حين بلغه أن زيد

---

(١) البخاري، الفتح ٨ (٤٩٠٠) واللفظ له. ومسلم (٢٧٧٢) نحو حديث البخاري.

(٢) هو ماء المريسيع.

(٣) معشر: كمسكن: الجماعة وأهل الرجل. القاموس المحيط، ٢/ ٩٠.

(٤) جلابيب: لقب لمن أسلم من المهاجرين، لقبهم بذلك المشركون، وأصل الجلابيب: الأزر الغلاظ، كانوا يلتحفون بها، فلقبوهم بذلك.

(٥) كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، وعند الطبري كما قال القائل، وهو مثل من أمثال عرب، وأول من قاله: حازم بن المنذر الحماني، وذلك أنه مر بمحلة همدان فوجد غلاما ملفوفا في ثوب، فرحمه وحمله معه وقدم به منزله وأمر أمة له أن ترضعه حتى كبر وراهق الحلم، فجعله راعيا لغنمه وسماه جحيشا، وكان لحازم ابنة يقال لها: راعوم فهويت الغلام وهويها وانتبه حازم لهذا فترصد لهم حتى عرف الحقيقة ووجدهم على الفاحشة، فقال: سمن كلبك يأكلك، فأرسلها مثلا وشد على جحيش ليقتله ففر ولحق بقبيلته، انظر مجمع الأمثال للميداني، ١/ ٣٣٣. ورقم المثل (١٧٨٧).

بن أرقم قد بلغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال: ولا تكلمت به - وكان شريفا عظيما - فقال من حضر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنصار من أصحابه: "يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل"، حدبا[1] على ابن أبي ابن سلول، ودفعا عنه، فلما استقل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسار لقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه، ثم قال: "يا نبي الله، والله لقد رحت في ساعة مبكرة، ما كنت تروح في مثلها"، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟**» قال: وأي صاحب يا رسول الله؟

قال: «**عبد الله بن أبي**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل**»، قال: فأنت يا رسول الله، والله تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل، وأنت العزيز، ثم قال: "يا رسول الله ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه ينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا". ثم مشى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آذنهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما، وإنما فعل ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبي، إلى أن قال: "وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويعنفونه"، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت**[2] **له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**».

قال: قال عمر: "قد والله علمت لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري"[3].

وهكذا قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذه الفتنة التي كادت تفكك وحدة المسلمين وتمزق شملهم وتجعلهم شيعا وأحزابا، فتقر بذلك أعين المنافقين وأعداء الدين، لكن الإيمان الذي ربى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه عليه، كان أقوى من مكيدة المنافقين، فما أن سمع المسلمون كلام الرسول

---

(١) حدبا على ابن أبي: أي عطفا عليه.

(٢) لأرعدت له آنف: أي انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمرهم بترك دعوى الجاهلية، حتى خمدت الفتنة التي أوقد المنافقون نارها، ثم اتخذ الرسول الكريم التدابير التي تقضي على آثارها وتعيد الإخاء والمودة إلى نفوس المسلمين.

والحكمة ظاهرة من أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالرحيل في وقت غير معتاد، وهي أن ترك مثل هذا الخبر ينتشر في الجيش يسبب بلبلة في الأفكار، ويثير القيل والقال مما ويصرف أذهان الجند الإسلامي إلى مهاترات كلامية، لا تحمد عقباها، فكانت مسيرة الجيش المتصلة ليلا ونهارا، مما أجهدهم، حتى وقعوا نياما، فمسح النوم العميق بعد النصب الشديد آثار الفتنة.

وهذا منهج في سياسة الأمور ينبغي أن يسلكه القادة الراشدون في كل زمان ومكان[1].

وقد كان لتسامح الرسول مع رأس المنافقين أبعد الآثار فيما بعد، فقد كان ابن بن أبي سلول كلما أحدث حدثاً كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه، ويعنّفونه، ويعرضون قتله على النبي، والرسول يأبى ويصفح، فأراد رسول الله أن يكشف لسيف الحق عن آثار سياسته الحكيمة، فقال: (كيف ترى ياعمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لي لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم لقتلته!!) فقال عمر قد - والله - علمت لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري[2].

وكان لابن أبي بن سلول ولد مؤمن مخلص يسمى عبدالله بن عبدالله بن أبي بن سلول، فلما علم بالأحداث ونزول السورة، أتى رسول الله فقال له: (يارسول الله! بلغني أنك تريد قتل أبي بن سلول فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً، فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج، ماكان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي بين الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بل نترفق به ونحسن صحبته مابقي معنا**»[3].

ولما وصل المسلمون مشارف المدينة راجعين وقف عبد الله بن عبد الله هذا على باب المدينة واستل سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبو عبد الله ابن

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ١٩٠.
(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.
(٣) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٠ - ٢٩٣.

أبـي ، قال له ابنه وراءك؟ فقال: مالك ويلك؟ فقال: "والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه العزيز وأنت الذليل"، فلما جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وكان إنما يسير ساقة فشكا إليه عبد الله بن أبي ابنه ، فقال ابنه عبد الله: "والله يـا رسـول الله لا يدخلـها حتـى تـأذن لـه"، فـأذن لـه رسـول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: "أما إذا أذن لك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فجز الآن"[1] .

وهـنا يـبرز لـنا موقفا صلبا قويا من مواقف العقيدة الإسلامية إذا تمكنت من قلـب المـسلم ورسخت فيه ، ذلك لأن بناء الشخصية الإسلامية على هذه العقيدة يخـرج للبـشرية نمطا فريدا من الناس يتحدون جميع الروابط والأواصر التي عهدها البـشر في أعـرافهم وتقاليدهم ومذاهبهم الاجتماعية ، وتكون الآصرة الوحيدة في حـياة المسلم هي آصرة العقيدة وحدها ، ومن هنا نفهم ما ورد في التاريخ الإسلامي مـن رسـوخ المسلم وثباته في وجه أبيه وأخيه الكافرين ولو أدى به ذلك إلى قتلهما ، لأن أغلـى شـيء يملكـه المـسلم هو عقيدته ، فإذا وقف في سبيل الدعوة إليها عرف اجتماعي أو رابطة قبلية أو مذاهب تقليدية ، تحداها المسلم بعزم وإصرار .

ومـن ذلـك هـذا الموقـف المشرف الذي وقفه عبد الله بن عبد الله بن أبي من أبـيه عـبد الله بـن أبـي ابـن سـلول ، حتـى وصـل بـه الأمـر إلى مراودة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستئذانه في قتله إن كان يحب ذلك .

ولـيس في الدنـيا مـذهب يخلق هذا النوع الفريد من التفاني في سبيل المبدأ أو العقـيدة وتلك معجزة عقيدة الإسلام التي يفتقر إليها الناس في كل زمان ومكان ، وهـي وحـدها الكفيلة بسعادة البشرية ووحدتها وقوتها فما أحوجها إلى مثل هذا الغـرس الطـيب لينـشأ جيل فريد في تصوره الإسلامي ، وسلوكه العملي في واقع الحـياة ، لانتـشال شـباب الأمـة الإسـلامية مـن وهـده الـضلال إلى قمـة العقيدة الإسلامية واستعلائها: ﴿ وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

ويـدل لهذا قوله تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بالله وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ الله وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُـوا آبَـاءَهُمْ أَوْ أَبْـنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ الله عَـنْهُمْ وَرَضُـوا عَـنْهُ أُولَـئِكَ حِـزْبُ الله أَلا إِنَّ حِـزْبَ الله هُمُ الْـمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

(١) تفسير ابن كثير ، ٤/ ٣٧٢ ، وتاريخه ، ٤/ ١٥٨ .

قال ابن كثير: "قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُم﴾ نزلت في أبي عبيدة قتل أباه يوم بدر: ﴿أَوْ أَبْنَاءَهُم﴾ نزلت في أبي بكر الصديق هم يومئذ بقتل ابنه عبد الرحمن، ﴿أَوْ إِخْوَانَهُم﴾ في مصعب بن عمير قتل أخاه عبيد بن عمير يومئذ، ﴿أَوْ عَشِيرَتَهُم﴾ في عمر بن الخطاب قتل قريبا له يومئذ.

وفي حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث قتلوا: عقبة وشيبة والوليد بن عتبة يومئذ وهو من عشيرتهم"[1].

وفي أعقاب غزوة بني المصطلق نزلت سورة المنافقون حيث كان المسلمون راجعين إلى المدينة وذلك بدليل رواية الإمام الترمذي (فلما أصبحنا قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سورة المنافقون)[2].

فقد تحدثت السورة بإسهاب عن المنافقين، وأشارت إلى بعض الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم وفضحت أكاذيبهم، إلا أنها في الختام حذرت المؤمنين من الإنشغال بزينة الدنيا ومتاعها وحثت على

وهكذا كان المجتمع المدني يتربى بالأحداث والقرآن الكريم يقوم بتوجيهه وتعليمه ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقوم بالإشراف على ذلك.

إن معالجة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتلك السموم التي نفثها المنافقون في ساحة الجيش الإسلامي، ابتغاء تمزيق وحدته وتفريق كلمته، لتدل دلالة واضحة على أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محاط بالعناية من الله عز وجل وعلى أنه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣ - ٤].

لقد كان ما تفوه به ابن أبي من الكلام البذيء مسوغا كافيا لقتله، وإراحة الناس من شره، ولكن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لبعد نظره وتوفيق الله له، رأى أن المصلحة تقتضي التسامح والصفح عنه، فقابل تلك الأذية والقول اللاذع بصدر رحب وقلب واسع، فقد ضاقت نفس عمر بن الخطاب ذرعا بهذا المنافق ووسعه حلم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصفحه الجميل عمن أساء إليه، يوضح ذلك ما ورد من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما قال له عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال: «**كيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه**».

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣٢٩، مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ١٩٥.
(٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المنافقون، ٥/ ٤١٥.

ولكن أذن بالسير فسار بالناس في ساعة لم يعهد له أن يسير في مثلها، وأمر بالسير المتواصل حتى لا يتمكن المنافقون من التجمع والخوض في حديث ابن أبي وترويجه بين الناس.

ولقد توقع الناس أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيعاقب المنافقين على سوء صنيعهم وعلى الأقل بقتل رأس الفتنة ابن أبي ولكن لم يقع شيء من هذا كله، ولقد جاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: "يا رسول الله إن كنت أمرت بقتل والدي فأنا الذي آتيك برأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر، فأدخل النار"، فكان الجواب النبوي: «**بل نترفق ونحسن صحبته ما بقي معنا**»[1].

لقد كان من آثار هذه المعاملة الحسنة أن قوم عبد الله بن أبي ابن سلول هم الذين أخذوا يعنفونه ويفضحون أمره ويأخذون على يديه، ولما بلغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا من فعلهم مع ابن أبي أرسل إلى عمر بن الخطاب فقال له: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لي اقتله، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته**»، قال عمر بن الخطاب: "قد علمت والله لأمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم بركة من أمري"[2].

وبعد أن فشل كيد المنافقون في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية حاكوا حادثة الإفك. وقد أخرج البخاري ومسلم حديث الإفك في صحيحهما وهذا سياق القصة من صحيح البخاري.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معه، قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها[3] فخرج سهمي فخرجت مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد مانزل الحجاب فأنا أحمل في هودجي[4] وأنزل فيه، فسرنا حتى

(١) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣.
(٢) سيرة ابن هشام، ٢/ ٢٩٢ - ٢٩٣.
٣) هي غزوة بني المصطلق.
(٤) الهودج: مركب النساء. انظر القاموس المحيط، ١/ ٢١٢. وفي فتح الباري، ٨/ ٤٥٨.
الهودج: بفتح الهاء والدال بينهما واو ساكنة وآخره جيم: محمل له قبة تستر بالثياب ونحوه، يوضع على ظهر البعير يركب فيه النساء ليكون أستر لهن.

إذا فرغ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فإذا عقد لي من جزع ظفار[1] قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط[2] الذين كانوا يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم إنما نأكل العُلقة[3] من الطعام فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وكنت جارية حديثة السنة فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب فأقمت منزلي الذي كنت فيه وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إليَّ فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأدلج[4] فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[5] حين عرفني فخمرت[6] وجهي بجلبابي والله ماكلمني كلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين[7] في نحر الظهيرة[8] فهلك من هلك، وكان

(١) جزع ظفار: هو خرز معروف في سواده بياض كالعروق وهي مدينة باليمن. انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ١/ ٢٦٩، والقاموس المحيط، ٣/ ١٢، وشرح مسلم للنووي، ٥/ ٦٣٠، وفتح الباري، ٨/ ٤٥٩.

(٢) الرهط من الرجال ما دون العشرة وقيل إلى الأربعين ولا تكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على أرهط وأرهاط وأراهط جمع الجمع. النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٢/ ٢٨٣. وقال ابن حجر: "لم أعرف منهم هنا أحدا إلا أن في رواية الواقدي أن أحدهم أبو موهوبة مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعند البلاذري: شهد أبو مويهبة غزوة المريسيع وكان يقود بعير عائشة، وكان من مولدي مزينة، وكأن الأصل أبو موهوبة ويصغر فيقال: أبو مويهبة". فتح الباري ٨/ ٤٥٩. وانظر مغازي الواقدي ٢/ ٤٢٦ وأنساب الأشراف للبلاذري ص ٤٨٨.

(٣) العلقة: بضم المهملة وسكون اللام من الطعام: أي البلغة منه، النهاية في غريب الحديث لابن الأثير، ٣/ ٢٨٩.

(٤) فأدلج: بالتشديد سار آخر الليل.

(٥) أي بقوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٦) فخمرت: أي غطيت.

(٧) موغرين: الوغرة: شدة الحر.

(٨) نحر الظهر: أولها وهو وقت شدة الحر.

الـذي تولى الإفك عبدالله بن أبي بن سلول ، وقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمت شـهراً والـناس يفيـضون في قـول أصـحاب الإفك لا أشعر بشيء من ذلك وهو يـريبني[1] إنـي لا أعرف من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللطف الذي كنت أرى منه حـين أشـتكي ، إنما يدخل علي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيسلم ثم يقول: «**كيف تـيكم؟**»[2] ثم ينصرف ، وذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهـت[3] فخـرجت معـي أم مـسطح قـبل المناصـع[4] وهـو متبرزنا وكنا لانخرج إلا لـيلاً إلى لـيل وذلـك قبل أن نتخذ الكنف[5] قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التـبرز قـبل الغـائط فكـنا نـتأذى بالكـنف أن نـتخذها عـند بيوتـنا ، فانطلقـت أنـا وأم مـسطح[6] وهـي ابنة أبـي رهـم بـن عـبد مناف ، وأمها بنت صـخر بـن عامـر خالـة أبي بكر الصديق وابنها مسطح بن أثاثة[7] فأقبلت أنا وأم مـسطح قـبل بـيتي قـد فـرغنا مـن شـأننا فعثـرت أم مـسطح في مرطها[8] فقالت: تعـس مـسطح فقلـت لهـا: بئس ماقلت أتسبين رجلاً شهد بدراً؟[9] قالت: أي -

---

(١) يريبني: يشككني .

(٢) كيف تيكم: وهي للمؤنث مثل ذاكم للذكر .

(٣) نقه المريض من باب طرب وخضع إذا برأ وأفاق وكان قريب العهد بالمرض ، ولم يرجع إليه كمـال صـحته وقـوته . النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ، ٥/ ١١١ ، والقاموس المحيط ٤/ ٢٩٤ ، ومختار الـصحاح ، ص ٦٧٨ . وعـند ابـن إسحاق حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة . سيرة ابن هشام ، ٢/ ٢٩٩ .

(٤) المناصع: المواضع التي يتخلى فيها لقضاء الحاجة .

(٥) الكنف: جمع كنيف: المكان الساتر .

(٦) قـال ابـن عـبد الـبر: اسمها سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم وهي ابنة خالة أبي بكر الصديق . وقيل - أم مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف - وأمها ريطـة بـنت صـخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق . والظاهر أنها سلمى بنت أبي رهم بن المطلـب بن عبد مناف ، واسم أبي رهم أنيس مكبرا لا سلمى بنت صخر فإن هذا نسب أم أبي بكر الصديق خالة أم مسطح وهي سلمى بنت صخر بن عامر . . .إلخ .
ووالـدة أم مـسطح اسمهـا ريطـة بـنت صـخر بن عامر بن سعد بن تيم ، وقال ابن حجر: رائطـة حكـاه أبـو نعيم . انظـر الاسـتيعاب ، ٣/ ٤٩٤ ، وطـبقات ابـن سـعد ، ٨/ ٢٢٨ و٣/ ٥٣ و١٦٩ ، وأسـد الغابـة لابـن الأثـير ، ٤/ ٣٠٨ و٥/ ١٥٦ و٧/ ٣٢٦ و٣٩٣ ، وفتح الباري ، ٨/ ٤٦٥ .

(٧) مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب ، توفي في خلافة عثمان .

(٨) فعثرت في مرطها: أي وطئته برجلها فسقطت .

(٩) فهـي منقـبة عظـيمة لمـن شهد بدرا ، ويزيد ذلك وضوحا قصة حاطب بن أبي بلتعه عندما

هنتاه[1] أولم تسمعي ماقال قلت: وماقال. فأخبرتني بخبر أهل الإفك فازددت مرضاً على مرضي قالت فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تعني فسلم - ثم قال: «**كيف تيكم؟**» فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما قالت: فأذن لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه مايتحدث الناس؟ قالت: يابنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[2] عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها[3] قالت: فقلت سبحان الله لقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لايرقأ لي دمع[4]، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي، فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا حين استلبث[5] الوحي يستأمرهما في فراق أهله، قالت فأما أسامة فأشار على رسول الله بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم من الود فقال: يارسول الله أهلك ومانعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يارسول الله لم يضيق الله عليك النساء سواها كثير وإن تسأل الجارية تصدقك، قالت: فدعا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بريرة فقال: «**أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك؟**» قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمضه عليها[6] أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن[7] فتأكله فقام رسول الله فاستعذر[8] يومئذ من عبدالله بن أبي بن سلول قالت: فقال رسول الله

كتب إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد أن يغزوكم في عام فتح مكة، وكشف أمره واعتذر إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صنع "وفيها فقال عمر: "يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق"، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرا، قال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". البخاري ٥/ ١١٩ باب غزوة الفتح.

(١) هنتاه: يابلهاء كأنها نسبت إلى قلة المعرفة بمكائد الناس وشرورهم.

(٢) وضيئة: الوضاءة الحسن والبهجة.

(٣) إلا أكثرن عليها: أي القول في عيبها.

(٤) لا يرقأ لي دمع: لاينقطع ولا يسكت.

(٥) استلبث: وهو الإبطاء والتأخر.

(٦) أغمضه عليها: أي أعيبها به وأطعن بها عليه.

(٧) الداجن: هي الشاة التي يعلفها الناس في منازلهم.

(٨) فاستعذر: أي قال من يقوم بعذري إن كفأنه على سوء صنيعه.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو على المنبر[1]: «**يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ماعلمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً[2] ماعلمت عليه إلا خيراً، وماكان يدخل على أهلي إلا معي**»، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يارسول الله أنا أعذرك منه إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج - وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية[3] - فقال لسعد: كذبت لعمر الله لاتقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة لنقتله فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور الحيان[4] الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخفضهم حتى سكتوا وسكت، قالت: فمكثت يومي لايرقأ لي دمع ولاأكتحل بنوم، قالت فأصبح أبواي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي، قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسلم ثم جلس، قالت ولم يجلس عندي منذ ماقيل قبلها، وقد لبث الوحي شهراً[5] لايوحى إليه من شأني قالت: فتشهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين جلس، ثم قال أما بعد: «**يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا[6] فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب إلى الله تاب الله عليه**» فلما قضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقالته قلص[7] دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي أجب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عني فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول

---

(١) المنبر: المراد به هنا الذي اتخذ في السنة الثانية، وكان من الطين وأما الذي اتخذ من خشب إنما كان في السنة الثامنة، وغزوة بني المصطلق كانت في الخامسة أو السادسة. السيرة الحلبية ٢/ ٣١٨.

(٢) هو صفوان بن المعطل السلمي.

(٣) احتملته الحمية: أي حملته الأنفة والغضب على الجهل.

(٤) فتشاور الحيان: أي تناهضوا للنزاع والعصبية.

(٥) التقيد بالشهر فهو المدة التي أولها إتيان عائشة إلى بيت أبويها.

(٦) كناية عما رميت به من الأفك.

(٧) قلص دمعي: أي ارتفع وذهب.

لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به فلئن قلت لكم بأمر ، والله يعلم أني منه لبريئة لا تصدقوني بذلك ، ولئن اعترفت لكم بأمر ، والله يعلم أني منه بريئة لتصدقن ، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف[1] قال: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ واللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] ، قالت ثم تحولت فاضطجعت على فراشي ، قالت: وأنا حينئذ أعلم أني بريئة ، وإن الله مبرئي ببراءتي ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحياً يتلى ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النوم رؤيا يبرئني الله بها ن قالت: فوالله ما رام[2] - رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[3] حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان[4] من العرق ، وهو يوم شات من ثقل القول الذي ينزل عليه ، قالت فلما سري[5] عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه وهو يضحك فكانت أول كلمة تكلم بها: «**يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك**» فقالت أمي: قومي إليه ، قالت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، وأنزل الله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ * لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ * لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ * وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ * يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ واللهُ

(١) هو يعقوب عليه السلام .
(٢) مارام: مابرح ومافراق مجلسه .
(٣) البرحاء: شدة الكرب من ثقل الوحي .
(٤) الجمان: اللؤلؤ الصغار وقيل حب يتخذ من الفضة أمثال اللؤلؤ .
(٥) سري: انكشف عنه مايجده من الهم والثقل .

عَلِيمٌ حَكِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ * وَلَوْلا فَضْلُ الله عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ الله رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ١١ - ٢٠]، فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ الله وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ الله لَكُمْ والله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فأرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبداً، قالت عائشة: وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل زينب بنت جحش[1] عن أمري، فقال: «**يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟**»، فقالت: يارسول الله أحمي[2] سمعي وبصري، وما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني[3] من أزواج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعصمها الله[4] بالورع[5] وطفقت[6] أختها حمنة[7] تحارب لها، فهلكت ممن هلك من أصحاب الإفك[8].

هذا وقد بينت الروايات أن من خاض في الإفك قد تاب - ماعدا ابن أبي - وقد اعتذر حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عما كان منه وقال يمدح عائشة بما هي أهل له[9]:

رأيتك وليغفر لك الله حرة ::: من المحصنات غير ذات غوائل
وإن لهم عزاً يرى الناس دونه ::: وتصبح غرثى من لحوم الغوافل
فكيف ووُدّي ماحييت ونصرتي ::: بك الدهر بل قيل امرئ متناحل
فإن كنت أهجوكم كما بلّغوكم ::: فلا رفعت سوطي إليّ أناملي
وإنّ الذي قد قيل ليس بلائق ::: لآل رسول الله زين المحافل

---

(١) هي زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وهي بنت عمته رضي الله عنها.
(٢) أحمي سمعي وبصري: أي أمنعهما من العذاب بسبب الكذب.
(٣) تساميني: أي تعاليني وتفاخرني أي تطاولني عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
(٤) عصمها: حفظها ومنعها.
(٥) الورع: الكف عن المحارم والتحرج منها.
(٦) طفقت: شرعت.
(٧) حمنة بنت جحش بنت عمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي أخت زينب رضي الله عنهم.
(٨) البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ...﴾ (٦/ ٦) رقم ٤٧٥٠.
(٩) السيرة النبوية لأبي شهبة، ٢/ ٢٦٣.

حـــصان رزانٌ ماتـــزن بـــربة ::: قـصاراً، وطـال العزّ كل التطاول[1]

لقد كان في هذه الغزوة من العبر والعظات الكثير، التي لا يمن المرور إلي غيرها دون ذكرها، فكانت الحكمة في زواج الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جويرية تتجلى في موقفها أمام رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تذكر ما آل إليه أمرها وما تجده من المرارة والأسى على ما حل بقومها لأنها لا تعرف الذل والهوان، فهي ابنة سيد قومه، وقد رزئت بكارثة عظمى، فقتل زوجها ومقاتلة قومها وسبي النساء والذرية، ووقعت تحت ذل الرق والعبودية، فكاتبت على نفسها لتظفر بحريتها، ولكنها عجزت عن أداء كتابتها فجاءت إلى رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تسأله المواساة والمساعدة على أداء كتابتها، فوقفت أمامه تعرفه بنفسها ومكانتها في قومها، فقالت: "يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في سهم ثابت بن قيس بن شماس أو ابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك، أستعينك على كتابتي"، فرق رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لحالها وعرض عليها أن يؤدي عنها كتابتها ويتزوجها ليرفع من شأنها ويعوضها خيرا مما فقدته من العز والشرف والسنا لأن بقاء مثلها عند أحد أفراد الجيش مما يزيد الأسى في نفسها، ومن ناحية أخرى ليعيد صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى قومها العزة والكرامة، فكان زواجه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها سببا في إطلاقهم من قيود الأسر، وقد وقع ما أراده صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فما أن تزوج جويرية حتى تسامع المسلمون بذلك، ففكوا جميع الأسرى الذين بأيديهم من بني المصطلق، وقالوا: "أصهار رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ"، وعادت الحرية إلى القبيلة بأكملها وصاروا محل عناية واحترام عند المسلمين.

وهكذا كان زواج رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من جويرية بركة على قومها وعزا لها ورفعة لقومها من الهوان الذي لحقهم، وبذلك يمكن لنا أن نستجلي بعض الحكمة في زواجه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ منها[2].

ولقد كانت قصة الإفك فريدة في نوعها وضخامتها عن جميع المحن والمصائب التي واجهها رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في هذه الغزوة وفي غيرها. لأن الرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان قد وطن نفسه لمواجهة كل بلية أو أذى يقوم به المنافقون لأنه على علم وبصيرة نافذة بمكايدهم وخستهم، إلا أنه لم يكن يتوقع منهم النيل من

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، المغازي، ص٢٨١.
(٢) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، ص ٣٥١.

عرضه ورميه في أحب الناس إليه ، لذا كانت حادثة الإفك لها أثرها ووقعها الثقيل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لقد جاءت هذه القصة تحمل في طياتها إبراز بشرية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأنه يتأثر كغيره من بني الإنسان ، وأنه لا يعلم الغيب وإنما الغيب لله وحده ، إذ لو كان يعلم الغيب لجزم ببراءة ساحة أهله وكذب المفترين لأول وهلة ، وأراح نفسه ، وأراح غيره .

ولكنه مكث أكثر من شهر في قلق دائم والناس يموجون ويخوضون في ذلك ، وهو لا يزيد على أن يشاور أصحابه وأتباعه في شأن أهله ، ويطلب من ينجده بإيقاف هذا الحادث الأليم ، ثم في آخر المطاف يذهب إلى زوجه يقول لها: «**يا عائشة لقد سمعت ما يقول الناس، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فتوبي إلى الله فإن الله يقبل التوبة عن عباده**» .

لقد كان هذا كله حاسما لما يخشى أن يقع فيه بعض المسلمين فيرفعون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق منزلته التي أنزله الله إياها ويدعون له ما لم يدعه لنفسه ، فكانت هذه الواقعة واضحة الدلالة على مشاركة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غيره في البشرية ، وأنه لا يعلم من الغيب إلا ما أطلعه الله عليه . وقد أوضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ﴾ [الجن ، الآيتان: ٢٧] .

وقوله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقوله: ﴿ قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلا ضَرّاً إِلاّ مَا شَاءَ الله وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨] .(١)

إن قصة الإفك كان من نتائجها البيان القاطع بأن الوحي ليس خاضعا لأمنية الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإرادته ، إذ لو كان لأمر كذلك ، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة منذ نشأتها وطفولتها ، ويريح نفسه من ويلاتها ونتائجها . وذلك بأن يأتي بقرآن يبرئ به أهله ويطمئن به أصحابه ، ويسكت به أهل القيل والقال ، لأنه كان يعلم من أهله الاستقامة والبعد عن هذه الجريمة الشنعاء ولكنه لم يفعل ذلك لأنه لا يملكه وإنما الوحي بيد الله وحده . وقد نفى الله عنه ذلك في أحد مواقفه مع المشركين .

---

(١) مرويات غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع ، ص ٣٥٤ .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

وظل شهرا كاملا يحمل بين جنبيه الألم الشديد، من جراء هذه الكارثة الفادحة ويصبر نفسه على ذلك ويطلب الفرج من الله عز وجل.

وكان من تمام الحكمة الإلهية أن تأخر عنه الوحي هذه المدة كلها ليقضي الله أمرا كان مفعولا.

قال ابن القيم: "واقتضى تمام الامتحان والابتلاء أن حبس الوحي عن رسول الله ﷺ شهرا، لا يوحى إليه في ذلك شيء، وذلك لتتم حكمته التي قدرها وقضاها وتظهر على أكمل الوجوه، ويزداد المؤمنون الصادقون إيمانا وثباتا على العدل والصدق، وحسن الظن بالله ورسوله وأهل بيته، والصديقين من عباده.

ويزداد المنافقون إفكا ونفاقا، ويظهر لرسوله ﷺ وللمؤمنين سرائرهم إلى أن قال: فكان من حكمة حبس الوحي شهرا، أن القضية نضجت، وتمحصت واستشرفت قلوب المؤمنين أعظم استشراف إلى ما يوحيه الله إلى رسوله ﷺ فيها، وتطلعت إلى ذلك غاية التطلع، فوافى الوحي أحوج ما كان إليه رسول الله ﷺ وأهل بيته والصديق وأهله وأصحابه المؤمنون، فورد عليهم ورود الغيث على الأرض، أحوج ما كانت إليه، فوقع منهم أعظم موقع، وألطفه، وسروا به أتم السرور، وحصل لهم به غاية الهناء، فلو أطلع الله رسوله ﷺ على حقيقة الحال من أول وهلة، وأنزل الوحي على على الفور بذلك، لفاتت هذه الحكم وأضعافها بل أضعاف أضعافها"[1].

وعن الحكمة في كون رسول الله ﷺ لم يجزم ببراءة أهله كما جزم غيره من الصحابة[2]، قال ابن القيم: "كان هذا من تمام الحكم الباهرة التي جعل الله هذه القصة سببا لها وامتحانا وابتلاء لرسوله ﷺ، ولجميع الأمة إلى

(١) زاد المعاد، ٢/ ١٢٧.

(٢) مثل ما قال أبو أيوب وزوجه ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم.

يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقواما، ويضع آخرين، ويزيد الله الذين اهتدوا هدى وإيمانا، ولا يزيد الظالمين إلا خسارا . . . " إلى أن قال: " وأيضا فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان هو المقصود بالأذى والتي رميت زوجته، فلم يكن يليق به أن يشهد ببراءتها مع علمه أو ظنه الظن المقارب للعلم ببراءتها، ولم يظن بها سوءا قط، وحاشاه وحاشاها، ولذلك لما استعذر من أهل الإفك، قال: «**من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرا، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي**» فكان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفيَّ مقام الصبر والثبات وحسن اعتناؤه بشأنه.

وأيضا: فإن الله سبحانه أحب أن يظهر منزلة رسوله وأهل بيته عنده وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وذمهم وعيبهم، بأمر لا يكون له فيه عمل ولا ينسب إليه بل يكون هو وحده المتولي لذلك[1].

* * * * *

(١) زاد المعاد، ٢/ ١٢٧.